

المحطة الأخيرة

الطب النفسي في الإمارات

■ العيادة النفسية للأطفال - أبو ظبي:

قمت بزيارة أخيرة إلى أبو ظبي ونزلت في فندق (زاخر) في شارع حمدان وقد كان مقر الضيافة المؤقت للمتعاقدين مع وزارة الصحة في أبو ظبي فذهبت إلى مدير الخدمات الصحية في الوزارة الدكتور تيسير بركات وكان صديقاً شخصياً للأخ علي شمو وسألته عن مكان العمل فقال لي سوف تذهب إلى (العين) حاضرة المنطقة الشرقية في إمارة أبو ظبي.

أخذت السيارة مع السائق الهندي إلى العين وكان الناس قد حذروني من وعورة الطريق إذ لم تمتد إليها يد العمران بعد واني يجب أن اتحرك في ضوء الشمس وأعود فيه إذ أن الرمال المتحركة غالباً ما تسد الطريق في مشوار العودة ووصلت إلى العين في منتصف النهار وقد بحثت عن طريق المستشفى دون جدوى إذ أن المارة قلّة وأغلبهم من الهنود الذين لا يتكلمون اللغة العربية وأولهم السائق الذي يتولى قيادتي وتوقفت عند دوار الساعة وأمامه بناية من طابقتين تتكون من بقالة ومطعم ومكتبة القدس رجعت فوراً خشية أن يداهمني المغيب وتبتلعني الرمال المتحركة والتي لاشك أنها قد أطبقت بفيكيها على الطريق الشريط الوحيد الذي يتلوي في قلب الصحراء.

■ العيادة النفسية للأطفال والمراهقين الصحة المدرسية - أبو ظبي:

رجعت إلى مدير الدائرة الذي بادرنى بالسؤال كيف وجدت المستشفى فأجبته بأنني لم أجد العين ذاتها!!! وحقيقة لا يمكن لغير الذين عاشوا في الإمارات في هذه الفترة أن يصدقوا ما أقول لأن ما حدث الآن هو المعجزة التاريخية التي ينبغي أن تعيها الاجيال التي تعيش في هذه التحفة العمرانية المولودة من رحم الصحراء.

لقد اقتنعت مدير الطب العلاجي بأنني لا استطيع العمل في العين لأن اطفالي يدرسون في الإرسالية الأمريكية في البحرين ولا يمكنني أخذهم إلى العين وقد تكون الصحة المدرسية في أبو ظبي من أفضل الخيارات حيث أوصل ما بدأت في البحرين في العيادة النفسية للأطفال والمراهقين.

عندما رجعت الى الفندق وجدت لدهشتي الشديدة رسالة خطية من الدكتور ابوالقاسم سعد تقول: (أخي الزين جئنا للتحية والمجاملة سوف أعود اليك في طريقي من العين) وهكذا العبد في التفكير والرب في التدبير.

في اليوم التالي دعاني الأخ علي شمو إلى الغداء في منزله العامر بالخالدية مع كوكبة من اعيان الجالية السودانية في أبوظبي وكانوا كلهم يحتلون مراكز قيادية في الدولة منهم العميد عبدالرحمن محجوب وكيل وزارة الداخلية والاستاذ بكري أبو وكيل وزارة الصناعة والسيد أحمد عوض الكريم مدير البلديه والسيد ابراهيم عبدالله مدير دائرة التنظيم و الادارة والسيد محمد عثمان عباس المستشار القانوني بدائرة الماء والكهرباء والاخوة المهندس الطيب ربيع والمهندس محمود كليب من رجال الاعمال البارزين .

والحق يقال لقد ظل ولا يزال الاخ الصديق علي شمو علامة بارزة في حياتي العملية داخل وخارج السودان، وقد ظل أحد نقاط التحول ومحطات الانطلاق في مسيرتي الممتدة حتى اليوم واولها الاستاذ محمد علي النويري استاذ اللغة العربية في مدرسة سنجة الوسطى والذي حببني في الشعر وحبب الشعر إلي وجعل مني (اعرابيا يهذي حين قال شعراً) وقد فارقتة لالتقي به بعد اربعين في مدينة أبوظبي ثانيها الاستاذ محمود نمر استاذ اللغة العربية في مدرسة خنتوب الثانوية والذي حببني في (الطب والادب) حتى تساوت معدلاتي فيهما في شهادة كمبرج فصلت على المرتبة الاولى بامتياز في اللغتين العربية والانجليزية معا وثالثها البروفيسور عبدالله الطيب والذي حببني في الادب العربي واخرجني عنوة من مختبر العلوم من قبضة البروفيسور ماكلي ذي الحذاء الحديدي إلى مدرج كلية الاداب وضد كل لوائح الجامعة وبعد فوات مهلة التسجيل لتجربي اقدمي مرة اخرى إليها خوفاً من حذاء ماكلي وقدر الله وماشاء فعل ورابعها وختامها المسك البروفيسور التجاني الماحي والذي لازمني أخوة وغمرني أبوة في اقسى اوقات الشدائد فركب معي سيارتي وهو في اشد حالات المرض ليقنع وكيل الوزارة ليفك اسري ويشرح صدري ونصحني بالكتابة قبل أن يدركني العمر أو يقعدني المرض وهانذا أفعل عملاً بنصيحته واتذكره وانا أكتب هذه السطور واتمثل صورته أمامي تحت الشجرة الظليلة في منزله بالخرطوم بحري وله مني الدعاء بالرحمة والغفران.

■ الصحة المدرسية في أبوظبي:

إن فكرة الصحة المدرسية تعتبر من التجارب الرائدة في تقديم الخدمات الصحية للأطفال في مناخ نفسي معافى بعيداً عن سلبيات الاختلاط بالكبار وضياع الوقت وخصوصية المعالجة في بيئة تسمح بالتقاء البيت والمدرسة والمعلم والطبيب وسرعة التواصل بين الادارة المدرسية والصحية في اطار التكامل في تقديم الرعاية الشاملة في الاسنان والعيون والأنف والأذن والحنجرة إلى جانب الطب العام ويمثل هذا الهيكل التنظيمي استثماراً جيداً للخدمات كما وكيفاً.

وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة للطب العام فهي أكثر ما تكون ملائمة للطب النفسي الذي يتضرر كثيراً وخطيراً من العزلة والانعزال عن بقية التخصصات لأن الانسان من جسد ونفس والعقل السليم في الجسم السليم. لقد خرجت من هذا النموذج فكرة الملف الصحي الشامل للطلاب والذي يلزمه من الروضة إلى الجامعة والدراسة بالخارج وما التشخيص والعلاج إلا رحلة مع حياة المريض من الولادة إلى اللحظة التي يتقدم فيها إلى العلاج منها تطورت فكرة طبيب العائلة والذي يتابع الحالة المرضية من خلال التاريخ المرضي للأسرة، وقد أصبحت الآن تخصصاً قائماً بذاته في إدارة الرعاية الصحية الأولية في شهادة البورد العربي لطب الأسرة وقد كتبت عن هذا النموذج الفريد في كتاب (حول سيكولوجية رعاية الطفل) الطبعة الأولى عام ١٩٩٠ ص ٢١٩.

كانت هنالك إدارة خاصة بالخدمة الاجتماعية في وزارة التربية والتعليم تضم من ضمن أنشطتها التربوية قطاع التوجيه والارشاد الاسري والاهتمام بالمشاكل النفسية للطلاب ويقوم بالاشراف عليها الدكتورة عائشة السيار الوكيل المساعد لقطاع الخدمة التربوية والاجتماعية وهي من الشخصيات الوطنية والتي كان لها حضور مؤثر وفاعل في مسيرة العملية التربوية ردحا من الزمن في دولة الإمارات العربية المتحدة بصفة عامة.

لقد كان هنالك تعاون وثيق ومقنن بين إدارة المدرسة والاختصاصيين الاجتماعيين التابعين للتربية والتعليم والعيادة الصحية داخل المدرسة والتابعة لإدارة الصحة المدرسية التابعة لوزارة الصحة وكانت هنالك شريحة صغيرة من الاختصاصيين النفسيين في إدارة الوزارة والمنطقة التعليمية تقوم بدور حلقة الوصل والتنسيق بين هذه التخصصات المختلفة.

وكانت هذه نواة الفريق العلاجي والمكون من الطبيب والمرضة والاختصاصيين الاجتماعيين داخل المدرسة ثم إدارة الخدمات النفسية في التربية والتي لها علاقة إدارية بالمدرسة والتي لها نفوذ تربوي يمكن ان يوظف ايجابيا مع الاسرة وهكذا عندما يحول الطالب الى العيادة النفسية خاصة يكون قد تم استقطاب كل الاطراف ذات العلاقة وعندما يصل إلى الممرضة النفسية والتي لها خبرة عملية في الطب النفسي لتعبئة الاستمارة الخاصة بتقييم الحالة النفسية وتقديمها للطبيب النفسي تكون قد اكتملت كل عناصر البحث والتشخيص والعلاج.

ولم تكن وسائل التحويل والمقابلة تقتضي بالضرورة هذا التسلسل الوظيفي بل كان يمكن

للاسرة أن تأتي مباشرة إلى الطبيب وهذا ما كنا نسعى اليه ونشجعه محاولة منا في محاربة وصمة المرض النفسي، ولكن واقع الحال في البداية كان يقتضى الاستعانة بكل هذه العناصر مجتمعة للتخفيف من رهبة الاسرة أو المريض.

واتسعت التجربة واكتسب العاملون في مجال الصحة النفسية مهارات جديدة من خلال المشاركة في الدورات التدريبية التي بدأت تعقد للطباء والمرضين في الصحة المدرسية والاختصاصيين الاجتماعيين في المدارس، وقد امتدت هذه الندوات والمحاضرات في قاعة المحاضرات في المستشفى المركزي بأبوظبي، وقد كانت المكان الوحيد المؤهل لعقد مثل هذه النشاطات وقد استمرت في خلال عطلات نصف العام الدراسي على مدى عامين متتاليين.

كما شملت حملات التوعية الاذاعة والتلفزيون والصحافة، وقد كان للعلاقة الحميمة التي تربطني بالأخ الاستاذ علي شمو وكيل وزارة الاعلام دور مقدر في توجيه هذه الاجهزة الرسمية بتخصيص مساحات واسعة من أوقاتها وصفحاتها لرفع مستوى الوعي الصحي وسط الآباء والامهات والمعلمين والمعلمات وكل شرائح المجتمع بأهمية الصحة النفسية للطفل وقضايا التعليم ومشاكل الشباب، وقد لعبت مجلة (زهرة الخليج) الدورية النسائية الوحيدة في الدولة في ذلك الوقت دوراً بارزاً مشهوداً في توعية الجمهور بأهمية الصحة النفسية للأطفال وعرض وسائل التنشئة الاجتماعية ودور المشاكل الاسرية في نمو الطفل الجسمي والعقلي والانفعالي، وقد كثفت من اللقاءات الصحفية مع طاقم العيادة النفسية بصورة اعطت انطباعاً جميلاً وجذاباً خفف كثيرا من وطأة الشعور بالرهبة من زيارة الطبيب النفسي، ولم اكن ارتدي معطف الطبيب الابيض لكي نتخطى حاجز الخوف عند الاطفال حتى من طبيب الاسنان في العيادة المجاورة، وقد كان هذا يروق لبعض أولياء الامور الذين يفضلون تقديمي للطفل على أنني معلم اكثر مني طبيباً وكانت غايتي الوصول الى قلب الطفل بصرف النظر عن المسمى الوظيفي.

وقد تجاوز اهتمامي بمشكلات الطفل دائرة العمل الرسمي إلى وسط الجالية السودانية في أبوظبي حين كنت عضواً في اللجنة التنفيذية للمركز الثقافي الاجتماعي السوداني مع مجموعة خيرة من المحاربين القدامى وقد اوكلت لكل منهم مهمة في مجال عمله، وقد اخترت رئيساً للجنة روضة الاطفال في عام ٧٧/٧٨ المنوط بها انشاء وتسيير روضة أطفال الجالية وتم اعدادها داخل المبنى الصغير وتمت معاينة المتقدمات الى التدريس وتم اختيار السيدة الفضلى آمنة شببيكة من أسرة عريقة في التعليم كاول مديرة للروضة والتي خرجت الآن أجيالاً من الطلاب السودانيين راجع مقدمة ديوان (نفوس على البحر).

بدأ تطوير العيادة النفسية للأطفال في الصحة المدرسية في (دبي) ومحاولة انشاء عيادات مماثلة في الشارقة و رأس الخيمة والفجيرة وكان يشرف على العيادة النفسية في دبي الدكتور عبدالرحمن حسب الرسول الطبيب النفسي المؤهل شبه المتفرغ مرتين في الاسبوع من قسم الطب النفسي في مستشفى الكويت.

في ١٩٧٦/٣/٣٠ حصلت على عضوية شعبة الطب النفسي للأطفال من الكلية الملكية البريطانية للطب النفسي وقمت باجراء ابحاث ميدانية (حول و بائيات الامراض النفسية الاكثر شيوعا عند الاطفال) وقد قدمت هذا البحث في المؤتمر السنوي لجمعية الأطباء النفسانيين المنعقد في القاهرة مع بحث الاستاذة الدكتورة زينب بشر أستاذة الطب النفسي بجامعة عين شمس من أوائل المتخصصين في هذا المجال من الاطباء النفسانيين العرب وسبق أن التقينا في مؤتمر الشباب والصحة النفسية المنعقد في جامعة الدول العربية في القاهرة في العام المنصرم.

في هذه الأثناء بدأت تطل على المنطقة ظاهرة استنشاق الغراء والبترول بين طلاب المدارس في سن مبكرة بصورة احدثت هزة كبيرة في أوساط المسئولين وذلك للطبيعة المحافظة للمجتمع وللتركيبة السكانية المختلفة ولأهمية الشريحة المستهدفة وهي أكبر رأسمال الدولة. وحتى تتمكن من البحث عن حل كان لابد من دراسة حجم المشكلة ولكي تتم هذه الخطوة كان لابد من الحصول على ضوء أخضر من مستويات عليا لدى صناع القرار، فقد قمت باتصالات شخصية مع سعادة وكيل وزارة الصحة آنذاك الشيخ الدكتور سعود كايد القاسمي والذي كلف مدراء الصحة المدرسية في جميع إمارات الدولة بالتعاون في إجراء هذا البحث الميداني.

وقد جندت الدولة كل طاقاتها و سخرت كل امكانياتها في سبيل محاصرة الظاهرة قبل استفحالتها، وكان من الطبيعي ان يكون هنالك نوع من التحفظ في الاعلان أو الحديث عن هذا الموضوع بصوت مرتفع، ولكننا قررنا القيام بمسح ميداني للظاهرة بصورة علمية من خلال تعبئة استمارات علمية عن طريق الزيارات الميدانية لكل مدارس الدولة في إمارة أبوظبي وبقية الإمارات الشمالية الاخرى، وقد كان للتعاون الملموس من مدراء المدارس أثر إيجابي على نتائج هذا البحث الميداني، ولابد من الاشادة بجهود مدراء الصحة المدرسية في جميع إمارات الدولة الذين تعاونوا بشكل تربوي في توفير المناخ العلمي والصحي لاجراء هذا المسح ونخص بالذكر الدكتور رمضان شبير مدير الصحة المدرسية بالشارقة والذي كان له دور بارز في توظيف طاقاته

المهنية وصلحياته الوظيفية وعلاقاته الشخصية مع كبار المسؤولين وصناع القرار في الامارات الشمالية لتوظيف كل الامكانيات لانجاح هذه المهمة والتي وصل الاهتمام بها إلى أصحاب السمو حكام الامارات والذين طلبوا اطلاعهم على حجم الظاهرة عقب كل زيارة وفي كل امانة ومباشرة بالتنسيق مع الدكتور رمضان وديوان سمو الحاكم في كل امانة.

وكنا لأول وهلة نتصور أن هذه الظاهرة قد تكون قاصرة على طلاب المدن الكبيرة وبعض المدارس في الاحياء الفقيرة كالعادة في حصر ودراسة وبائيات مثل هذه الظواهر السلوكية غير السوية، لكن المدهش حقا قد تبين أن هذه الظاهرة موجودة في مدارس صغيرة و ابتدائية وفي مناطق نائية وبصورة اكثر دلالة على الاضطراب السلوكي.

لقد وجدنا عند بعض الفئات من يتعاطى شرب العطور مثل الكولونيا المخففة بالماء (كولونيا ابو قرون ٥٥٥) أو بعض مستحضرات التجميل مثل المناكير أو كريم النيفيا أو مادة الاستون وفي حالات شاذة مفرطة في الغلو يشربون المادة الحارقة المستعملة في شحن بطارية السيارة مما يترتب عليه وجود حروق او ثقبون متناثرة في صدر الجلابب مما كنا نتصوره حرق اعقاب السجائر وكان هذا الاقرب الى النظرة السريعة غير المتفحصة أو المرتابة في غرابة السلوك.

بعد رجوعنا بهذه المؤشرات الأولية عن حجم الظاهرة كان لزاماً أن نبدأ حملة توعية هادفة ومدروسة ولكن بالتعاون مع كل الجهات المعنية في التربية والتعليم والاعلام والداخلية والعمل والشئون الاجتماعية والشئون الاسلامية والاقواف ووزارة الشباب والرياضة، ولكي يتهيأ المناخ النفسي ويتوحد المدخل إلى الوصول إلى رؤية موحدة للحل ارتأى سعادة وكيل وزارة الصحة عقد ندوة صحفية في دار صحيفة (الفجر) في أبو ظبي جمعت اكبر عدد من المسؤولين في الوزارات المذكورة وقد ظهر منذ اللحظة الاولى في النقاش حساسية الموضوع في شأن شريحة تمثل أعلى المدخرات على مستوى الفرد والدولة وربع نسبة السكان في الاحصائيات واولى عناصر التنمية و اكبر ثروات المستقبل.

من حسن الطالع أن تراس سعادة الوكيل الندوة وكان يديرها الصحفي الاديب الاستاذ حبيب الصايغ المعروف بجراته الصحفية وحنكته الفنية في إدارة الحوارات المتناقضة والمثيرة

للجدل وبدأ الخلاف حول: (هل هي ظاهرة أم مشكلة ؟) وقد بادر الأستاذ الصايغ المشاركين بقوله دعونا لانضيق في متاهة الدجاجة من البيضة أم البيضة من الدجاجة !!! نحن امام قضية تبحث عن حل فلا يصرفنا عن الحل ماذا نسمي القضية وقد كان هذا اقصر الدروب للوصول الى نقطة التقاء وسط هذا الخلاف.

وقد بدا واضحا كيف ينظر التربويون إلى القضية كظاهرة لاتستحق هذا الحجم من التهويل والاعلان الذي قد يضر بسمعة التعليم ويسيء إلى العملية التربوية وكيف ينظر رجال الأمن إلى الناحية الاجرامية في السلوك وكيف ينظر رجال الدين إلى ضعف النوازع والديني وضرورة التحصين من العادات المستوردة وكيف ينظر قادة الشباب الى قلة المتنفسات للطاقت الطلابية وغياب دور الاندية الرياضية وانعدام المعسكرات الصيفية للطلاب خاصة وانه قد وضع من دراسته ان هذه الظاهرة كانت تصل أعلى معدلاتها في الصيف وتبدأ في الانحسار مع بداية العام الدراسي حتى إذا جاء منتصف العام انحسرت بشكل مذهل ومما يدل أيضاً على اضرار اوقات الفراغ في حياة الطالب.

ورغم الاختلاف في وجهات النظر والتي لم تفسد للود قضية فقد كان الحد الأدنى من الاتفاق ضرورة توزيع المسؤوليات وليس تبادل الاتهامات حول التقصير فالكل له دور في المشكلة والحل.

وقد كانت هذه اول تجربة للنظرة الجماعية والالتفاف والتعاون في التصدي للمشكلات الاجتماعية في كل المؤسسات الحكومية و الطوعية في المستقبل وكان من ثمار هذه الندوة وتلك الظاهرة أن فتحت العيون على امكانية الاستهداف للمنطقة بخطر المخدرات نتيجة الثروات الهائلة والاستغلال الجغرافي للمنطقة كمحطة ترانزيت للسلع الاستهلاكية بين الشرق والغرب.

وكان من فوائد هذه الندوة أن تم توزيع الادوار على الجهات المشاركة والمعنية كل في مجال اختصاصه فوزارة الداخلية اخذت على عاتقها تطوير مصادر الآفة في محلات بيع الغراء في المنطقة الصناعية والحوانيت الصغيرة حيث تباع العلبة الصغيرة بأضعاف مضاعفة وفرض الرقابة على شيشات البترول حتى لايباع بترول السيارات في الزجاجات الفارغة بأي حال من الأحوال وحددت عقوبات صارمة في حالة الاخلال بهذه الاوامر كما تم تشديد الرقابة على البنائيات القديمة والمهجورة والتي كانت تمثل مأوى أو نقطة تجمع للشللية في ممارسة هذه

السلوكيات الضارة، كما قامت وزارة التربية والتعليم بالتوجيه لمدراء المدارس بالمشاركة الفعالة في تقصى الأعراض السلوكية الدالة على امكانية وجود هذه الظاهرة وسط الطلاب وتم توظيف كل طاقات الاخصائيين الاجتماعيين في المدارس لمساعدة الاطفال الضحايا بأسلوب (الشدة في غير عنف واللين في غير ضعف) ومتابعة الاسرة المنكوبة في هذا الطوفان، كما بدأ التفكير في وضع التوعية الصحية من هذه الاخطار في المناهج الدراسية في بعض المواد العلمية، وأن تكن هذه الخطوة قد لقيت معارضة شديدة من بعض المتحفظين من خطر لفت انظار الفئة البريئة والمستقيمة إلى اعوجاج سلوك الآخرين، وإن كانت هذه النظرة المتوجسة قد لاقت قبولاً قد بنا عن السير فيها إلا انها فيما بعد اصبحت قابلة لاعادة النظر وكان دور وزارة الصحة تكثيف حملات التوعية وسط الكادر الطبي بضرورة الكشف المبكر والتدخل السريع وذلك عن طريق الندوات الصحية المنتظمة في كل مدارس الدولة وعقد الدورات التثقيفية لأطباء الصحة المدرسية في كل امارات الدولة بالتعاون مع مدراء المناطق الطبية المختلفة.

كما قامت وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية بتوجيه أئمة المساجد بالتنوع الدينية في خطبة الجمعة والحض على كراهية هذه السلوكيات التي تحجب الوعي وتخامر العقل وبذلك تندرج تحت شر المحرمات وتثوير الآباء والامهات بأن يخافوا الله في أبنائهم وقد قامت وزارة الشباب والرياضة بتوعية الطلاب المدرجين في النشاطات الرياضية وحث المسؤولين على انشاء مراكز صيفية للطلاب لكي ترشد الطاقات الزائدة، كما قامت وزارة الاعلام والثقافة بنشاط ملحوظ في الصحافة الرسمية وكان للعمود الاسبوعي للصحفي المرموق الاستاذ مصطفى شردي رئيس تحرير جريدة الاتحاد الإماراتية (أقول لكم) في نفس الصحيفة وعمود الاستاذ علي جاسم (شئون وشجون) أثر فعال في اشعال جذوة حماس المسؤولين على كل المستويات للاصطاف خلف كل المواقف التي تقضي على تلك الظاهرة في مهدها.

وقد كتبت بحثاً مطولاً حول هذا الموضوع بعنوان (أثر الاعتماد على العقاقير والمسكرات والمخدرات) نشر في كل الصحف المحلية في ذلك الوقت في إطار التوعية وقد اعدت طباعته في كتاب (مدخل الى الطب النفسي) الطبعة الاولى عام ١٩٨٦ص ٢٧٥.

وقد بدأ التفكير في وضع (قانون للصحة النفسية) وتم تشكيل لجنة لهذا الغرض برئاسة سعادة وكيل وزارة الصحة وعضوية الدكتور أحمد الهاشمي مدير منطقة دبي الطبية والدكتور عماد الدين فريد والدكتور أبو القاسم سعد والدكتور عمر الرفاعي وشخصي وكان المستشار

القانوني بالوزارة مقررًا للجنة واستمرت جلساتها لشهور طويلة مستعينة بالقوانين المحلية والاقليمية والعالمية المتوفرة وأبرزها القانون الانجليزي حتى تم إصدار القانون الاتحادي رقم ٢٨ لسنة ١٩٨١ في شأن حجز المرضى المصابين عقلياً ورغم ما به من بعض القصور إلا أنه القانون الوحيد للصحة النفسية في المنطقة والذي يجري الآن وضع لوائح تنفيذية لتنفيذ القانون بصورة أفضل.

وقد خصصت جريدة (الفجر) و (الوحدة) صفحات طويلة ولقاءات متواصلة مع كل قطاعات المجتمع والمسؤولين لتوضيح أخطار هذه المشكلة والتأكيد على ضرورة وضع التشريعات المناسبة التي تستشرف آفاق المستقبل.

وفي مجال الإعلام دعاني الاستاذ المذيع اللامع حمدي بدرالدين مدير البرامج بإذاعة وتلفزيون أبو ظبي للإعداد لبرنامج تلفزيوني يخاطب فئة الشباب ويحاورهم في المشاكل المطروحة في الساحة مع الاستاذ المذيع محمد القدسي بحكم طبيعة عملي واهتمامي بهذه القضايا وموقعي كرئيس للجنة التربوية بمجالس الآباء في ثانوية مدرسة أبو ظبي الثانوية، وقد كانت أول وأكبر مدرسة بنين، وقد أطلقنا على البرنامج اسم (قضايا الشباب) ويذاع اسبوعياً في قناة أبو ظبي ويضم مجموعة مختارة من الطلاب الصفوة والقذوة الحسنة من ابناء اولياء الامور المرموقين والمشاركين الفاعلين في مجالس الآباء في مدارس أبو ظبي، وقد كان البرنامج يناقش كل الظواهر السلوكية الضارة والمشاكل الدراسية والنفسية التي تؤثر في حياة الطلاب وقد استمر البرنامج على مدى سنتين وقد أصبح الطلاب المشاركون فيه الآن من المسؤولين الكبار وصناع القرار.

وكأنما التاريخ يعيد نفسه في غير ذلك المكان، فقد كان الاعلاميون القائمون على إخراج البرنامج هم نفس الطاقم الذي كان يتولى إخراج برنامجي في السودان (أضواء على النفس البشرية) عام ١٩٦٥ وهم الاخوة الاعلاميون الاساتذة عوض عيد وبكري حمد وأحمد احيمر وعبد الماجد مسعود تحت اشراف صديق الجميع الاستاذ علي شمو.

في عام ١٩٧٩ توقف البرنامج عندما تم انتدابي للعمل في جامعة الإمارات العربية المتحدة الحديثة الانشاء والمكونة من كلية التربية لتخريج معلمين مواطنين يتسلمون رسالة تعليم الاجيال في المستقبل وكنت أعمل خارج هيئة التدريس أسافر الى مدينة العين مرتين في الاسبوع لتدريس الطلاب والطالبات مساق (علم النفس الفسيولوجي) لشعبة تخصص علم النفس في كلية التربية

الوحيدة في الجامعة وقد التقيت بصفوة من الاساتذة السودانيين المنتدبين للعمل في الجامعة من شتى التخصصات واذكر على سبيل المثال لا الحصر الدكتور محمد احمد ابوسن والدكتور محمد علي احمد والدكتور سعد الحكيم والدكتورة سعاد الفاتح والدكتور الزبير بشير طه والذي خلفني في تدريس المساق في عام ١٩٨٦ عندما تم تعييني رئيسا لقسم الطب النفسي في مستشفى أبوظبي المركزي.

كان العمل في العيادة النفسية في الصحة المدرسية قد قطع شوطا بعيداً وأصبح يشغل حيزاً كبيراً من اهتمام المسؤولين، وقد أصبح الإقبال عليه من جانب أولياء الامور يستوجب توسيع وسائل الرعاية بذوي الاحتياجات من الجنسين خاصة وقد بدأت تصل بعض الحالات التي تحتاج الى عناية مركزة إما لأنها يصعب استيعابها داخل البيت ولا يمكن استمرارها داخل المدرسة ولا يمكن إيداعها مع المرضى الكبار وكان لا بد من انشاء وحدة نفسية صغيرة متخصصة في قسم الامراض النفسية والعصبية داخل المستشفى المركزي ولفترة لاتتجاوز مدة تجاوز الأزمة وحل الصراع أو تحويل وتبديل البيئة المحيطة ومنها اضطرابات المراهقة وحالات التبول الليلي اللاإرادي وحالات النوبات الصرعية ضعيفة الاستجابة للعلاج الدوائي والتي تسبب هلعاً داخل الاسرة وتعمق من وصمة المرض النفسي .

ولا بد من أن أذكر هنا حادثة من واقع العمل اليومي في مجال التوعية الصحية عندما حدث ذات يوم ان سقطت إحدى الطالبات في الصف إثر نوبة تشنجية فاشتعل ما يشبه الحريق وسط الطالبات ليمتد في فناء المدرسة الاعدادية المجاورة وخرجت الطالبات في حالة فرع شديد وهستيريا جماعية وتم أخذ الطالبة الى الحوادث وتجمهرت الطالبات للعودة الى منازلهن واستدعاء أولياء الامور لآخذ البنات وأسقط في يد الادارة المدرسية رغم المعرفة التامة لتداعيات الموضوع وعدم القدرة على السيطرة على الموقف.

استدعاني مدير الصحة المدرسية وطلب مني المساعدة في تهدئة الخواطر وعندما ذهبت الى المدرسة وجدت أن بعض الاسر قد تجمعت أمام مبنى الادارة مطالبة بنقل الطالبة المسكونة من الصف أو نوقف الطالبات عن الدراسة وكان هذا أقصى ما يمكن ان تصل اليه الأزمة وأقصى ما يمكن من الحلول .

تقرر إقامة ندوة لأولياء الأمور في قاعة المدرسة حول (الصرع ... المشكلة والحل) وتم شرح أسباب النوبات الصرعية وطرق علاجها وتم التأكيد الواضح على أن الصرع لايعدي ولو

كان بين زوجين يعيشان تحت نفس السقف طوال العمر، وقد ساعدت هذه المحاضرة القصيرة في احتواء أزمة كان يمكن أن تحطم مستقبل أسرة وتشرد عشرات الطالبات وقد كانت الاستعانة بأجهزة الإعلام في تبني تداعيات المشكلة دوراً حميداً في تطويق الأزمة وانفتح الباب على مصراعية في المدارس للندوات واللقاءات العلمية و مجالس الآباء و الامهات و مناقشة المشاكل النفسية للأطفال و المراهقين.

في عام ١٩٨٤ تم إنشاء وحدة صغيرة من عشر أسرة في قسمين للإناث والذكور وكنت أشرف على هذه الوحدة كقسم داخلي للعيادة النفسية الخارجية للأطفال والمراهقين، وكنت استعين في التدريب العملي لطلاب وطالبات قسم علم النفس في تدريس الصحة النفسية بالحضور معهم من الجامعة لمعاينة بعض الحالات المرضية عند الأطفال والكبار ومشاهدة رسام الدماغ الكهربائي والذي اعتبره أحد الوجوه العلمية والعملية للتدليل على أن الطب النفسي يقوم على أسس علمية من اعتلال نشاط الدماغ الكهربائي أو اختلال نشاط المواد الكيميائية في الموصلات العصبية وكان هاجسي الاول وهمي الاوحد توضيح الجانب البيولوجي في حدوث المرض النفسي لأن آخرين يقومون بتأكيد دور الجانب الاجتماعي والنفسي ولن تزول الوصمة العالقة بالامراض النفسية الا إذا تبين للعامة أن ثمة عوامل بيولوجية تدخل في نشوء المرض النفسي ولا بد من إعادة التوازن اليها بالعقاقير الطبية حتى يثق المرضى بالعلاج ويقبلون عليه وحتى تستقر الحالة الحادة ويصبحون قادرين على الاستجابة للعلاج النفسي والذي يتطلب قدراً من الهدوء النفسي والاستقرار الانفعالي حتى يمكن إحداث تغييرات معرفية أو إدراكية في وعي المريض.

بعد إنتهاء فترة انتدابي للجامعة الأم تم افتتاح الانتساب الموجه في كل الإمارات لتوفير الفرص للعاملين من المواطنين في الوزارات الحكومية من الالتحاق بالتعليم الجامعي والحصول على دراسات عليا فانتدبت للعمل في هذا القسم تحت اشراف الدكتور النميري، وقد كان التدريس في المساء بعد نهاية ساعات العمل الرسمي للمنتسبين.

وقد تم أيضا استحداث دبلوم التأهيل التربوي للمدرسين والمدرسات للتأهيل للحصول على مؤهل علمي يمكنهم من الترقى إلى مدرء مدارس للاحلال والتوطين وقد كنت ادرس مساق علم نفس النمو والفروق الفردية .

وقد حرصت على تدوين هذه المحاضرات في كتاب (مدخل الى الطب النفسي) دار الثقافة للطباعة والنشر بيروت الطبعة الاولى عام ١٩٨٦ .

لقد كانت فترة العمل في مجال الصحة المدرسية بداية موفقة للسير في الاتجاه الصحيح من خلال تكوين علاقات مهنية بناءة مع قطاعات مهمة من المهتمين والمعنيين بالصحة النفسية للمجتمع كما أن العمل الجماعي الذي تميزت به هذه العلاقة وروح الفريق التي اتسمت بصفة المشاركة في اتخاذ القرار جعلت من الطب النفسي موضع اهتمام الكثيرين وموقع حضور دائم ومتميز في بؤرة الضوء في كل الاجتماعات والندوات والمؤتمرات التي تعقد من اجل الطفولة في كل الشرائح العمرية واهم هذه المؤتمرات ذلك الذي عقد في فندق هيلتون أبوظبي في عام ١٩٨٣ تحت رعاية حرم صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيس الدولة ورئاسة معالي الدكتور عزالدين إبراهيم المستشار الثقافى بديوان الرئاسة ومدير جامعة الإمارات العربية المتحدة في ذلك الوقت وقد خرج هذا الاجتماع بوثيقة حقوق الطفل وتكوين المجلس الاعلى للطفولة والذي ضم خيرة المهتمين بشئون الطفل من كل الوزارات و كانت هذه انطلاقة جديدة للعمل الجماعي من أجل الطفولة.

في عام ١٩٨٣ تم قبول ابني الاكبر في كلية الطب جامعة الخرطوم مع صفة من أبناء المغتربين في دولة الإمارات العربية المتحدة وكان لهذا القبول عدة دلالات واهمية خاصة لان صراعا مريرا كان يدور حول كيفية استيعاب أبناء المغتربين في جامعة الخرطوم الام الحلم الذي يراود كل أب وكل أم منذ ولادة الطفل حتى دخوله فيها ناجحاً أو خروجه منها فاشلاً ولائثالث لهما في ذلك الوقت ولانني كنت أحد اعضاء لجنة أبناء المغتربين الذين حفيت أقدامهم من الهرولة بين الخرطوم وأبوظبي لمناقشة معادلة الشهادات والتي أثبتت اليوم انها كانت كلمة حق يراود بها باطل وعندما تم القبول اعتبرت هذا نصراً كافياً وانجاراً تاريخياً ينبغي ان يتوج بالعودة الطوعية إلى البلاد وقررت العودة .

في زيارة خاطفة إلى الخرطوم كان ينعقد مؤتمر للجراحين في قاعة الصداقة بالخرطوم في نفس العام وذهبت مرافقاً للصديق الجراح الدكتور شوقي حسن المصري الاستاذ بجامعة الخرطوم والتقيت هنالك بالزميل الدكتور شيخ ادريس عبدالرحيم والذي اخبرني بأن هنالك إعلاناً عن وظيفة شاغرة في قسم الطب النفسي في كلية الطب.

والتقديم الآن عليك الذهاب الى شئون الافراد وتقديم طلب وإخطار المدير والبقية تأتي فقلت له إنني الآن غير مستعد وليست لدي مستندات ولم افكر في الموضوع فقال لي: إن الأمر لا يحتاج إلى استعدادات ولا مستندات ولا تفكير كلهم يعرفونك وليس هنالك منافسون ولا تضيق هذه الفرصة وكأنما كان هذا الأمر يتناغم مع ما يدور بداخلي يغذيه هذا الاحساس المتأجج بالرغبة في العودة وهذا التزام العفوي مع قبول ابني وشعوري بأن الغربة قد استنفذت اغراضها بوصول ابني إلى جامعة الخرطوم.

إذا أضفت الى كل هذا مصداقيتي منقطعة النظر في أقوال وأفعال الدكتور شيخ ادريس والذي كان يتمتع بمكانة خاصة في نفسى انتزعها من الجميع عندما كان يضرب المثل في تفانيه في العمل في عيادة بحري والتجاني الماحي وصبره على المكاره حبيساً وطليقاً إلى جانب العلاقات الاسرية التي تربطنا به وصهره الدكتور صلاح ابوبكر والذي زاملنا في بريطانيا. أضف الى ذلك معرفتي الشخصية بالبروفيسور عمر بليل مدير الجامعة وصادقتي معه منذ ايام حنتوب الثانوية وحبه للشعر ومحبتني له وعلاقتي بأسرته الكريمة ووعدته لي بأن يعتبر عملي في الجامعة استثماراً له في مشروع مضمون العائد وأنه سوف يساند طلبي للالتحاق فتقدمت للجامعة في بضعة سطور وما تيسر لي من معلومات في تناول اليد ورجعت إلى أبوظبي.

وفي أبوظبي ودرءاً للحرج طلبت من الأخ السيد إبراهيم عبدالله مدير دائرة شئون الموظفين أن يصطحبني لمقابلة سعادة الوكيل لاطلب منه السماح لي بالعودة خاصة وأن ابني قد تم قبوله في جامعة الخرطوم وأريد أن أكون معه وتشفع لي الاخ ابراهيم بأنني أرغب في الالتحاق بالجامعة فأخبرني سعادة الوكيل بأنه يرغب في استمرارني في العمل ويمكن أن يطلب من معالي وزير الصحة مخاطبة المسؤولين كتابة بأن يسمحوا لي بالاستمرار في شكل إعارة أو تعاقد شخصي حتى أكمل المشروعات التي بدأتها أو يتم تأهيل الكادر الوطني الذي يتحمل اعباء المسؤولية.

وكان التاريخ يعيد نفسه مع البحرين وأضاف سعادة الوكيل الدكتور عبد الرحيم جعفر والذي تفضل مشكوراً بالتوثيق لهذه الوقائع المذكورة في هذا الكتاب قائلاً أنهم يمكن أن يستصدروا رسالة من ديوان سمورئيس الدولة إلى الرئيس نميري كما فعلوا مع الزميل الدكتور مختار جمعة استشاري امراض القلب من الشقيقة مصر عندما خاطبوا رئاسة الجمهورية المصرية وتمت الموافقة على التمديد و شتان ما بين الاثنين.

خرجت مع الأخ ابراهيم الذي قال لي : والله ما كنت اعتقد انهم متمسكون بك الى هذه الدرجة فالأفضل أن تبقى واستدعاني معالي وزير الصحة الاستاذ حمد عبدالرحمن المدفع وسلمني رسالة شخصية الى مدير الجامعة وذهبت لمقابلة الاخ الاكبر الزميل الدكتور كمال بشرى رئيس قسم جراحة التجميل في الوزارة وقال لي :إن مبدأ العودة يؤيده كل عاقل ولكن الظروف الحالية غير مشجعة ولا تعتقد أن مهمتك سوف تكون سهلة خاصة وان لديك تجارب سابقة لم تكن سارة فماذا تغير الآن؟ وانت هنا تتمتع بوضع مريح وزملاؤنا هنالك البروفيسور احمد حسن عبد الجليل أستاذ الجراحة والبروفيسور الطاهر فضل أستاذ التخدير واللذان كانا معارين في السلاح الطبي في دولة الإمارات وعادا الى الجامعة والبروفيسور عبد الرحمن محمد موسى كلهم في الجامعة ولهم أبناء دفعة ابنك وهو ابنهم ايضا ولكن حتى تطمئن على صحة قرارك وتوصل الرسالة فلا تتحمس للموضوع فتخسر الجانبين.

عدت الى الخرطوم وبدأت الاجراءات وأول من التقيت به كان الدكتور محمود ابراهيم القائم باعمال رئيس قسم الطب النفسي بالكلية يعاونه الدكتور أحمد عثمان سراج ذهبت الى شئون الافراد فطلبوا مني من بين الشهادات العلمية المطلوبة شهادة كمبردج الثانويه وتفصيل امتحانات السنة الاولى في الجامعة من كلية العلوم. وأنا في طريقي عائد من وزارة التربية والتي لم تكن تملك في الارشيف نتائج العشر سنوات الاخيرة ما كان بوسعها أن تخزن نتائج العشرين سنة السابقة وبعد أن خرجت من كلية العلوم التقيت بالصدیق الاخ الدكتور الهادي الشيخ أستاذ جراحة العيون المعروف فقال لي : «يا زين أنت مقدم للدراسة أم التدريس ؟ ايه حكاية الشهادة الثانوية والابتدائية قدم طلبك وسافر إذا كانوا عايزنك يطلبوك».

وقد يكون من المناسب أن أذكر هنا من المفارقات العجيبة عندما رجعت إلى أبو ظبي لاحقاً ان زارنا مستر هول استاذ اللغة الانجليزية بمدرسة حنتوب الثانوية ونزل ضيفا على صديقه الوفي زميل الدراسة ورفيق الدفعة القاضي الأستاذ على محمد البشير المستشار القانوني بدائرة البترول وكان أخونا وصديقنا ودفعتنا أيضاً في نفس الزمان والمكان سعادة سفير السودان في دولة الإمارات الاستاذ حمد النيل محمد أحمد، وقد كان مستر هول أستاذنا جميعا فاحتفلنا به جميعا في سلسلة من الدعوات وكنا اكثر من عشرين في مدينة أبو ظبي فقط.

وقد اسعدنا كثيراً وفاجأنا أكثر عندما وجدنا لديه كراسة يحتفظ فيها بتفاصيل الشهادة السودانية العامة (كمبردج) آنذاك لعشر سنوات سابقة وأخرى لاحقة بالدرجات والتفاصيل

وأعطى كل منا شهادته في صورة تذكارية جماعية ومن خلال هذه الذاكرة الارشيفية تمنيت لو أعطى صورة لوزارة التربية والتعليم بالسودان بعد أن فات الأوان وقلت للاخ علي ياحليل أيام زمان ! فقال لي قولوها صريحة يا حليل الانجليز، وقد كان منذ أيام حنتوب مجاهراً بأعجابه بالخواجات وصداقته لهم جميعا وليس أدل على ذلك من هذا الوفاء بعد أربعين عاماً من الدراسة بين مستر هول و(علي بانث) نسبة الى قريته بانث بالجزيرة والتي يعتز بها في سياق اعتزازه بالانجليز بنفس الحس الوطني والانتماء القبلي وياليت قومي يعلمون!

ذهبت الى المنزل في الخرطوم وكانت الجامعة في فترة الامتحانات فطلب مني الأخ الدكتور محمود أبكر مساعدتهم في التصحيح وهم مرهقون في العمل في الصباح وفي العيادة في المساء.

وعلمت أن الكلية قد قررت تعييني (مدرساً) في هيئة التدريس على أن يتم التقييم لاحقاً والتقيت بالصديق الأخ الدكتور محمد عثمان عبدالمالك أستاذ الطب الشرعي والذي كان يشغل منصب نائب المدير بعد عودته من السعودية في ظروف مماثلة وقال لي: لقد سبق وحضرت من السعودية والآن افكر في الرجوع إليها ولأعرف سبيلاً لذلك فلا تكرر نفس التجربة ومازال أمامك طريق العودة مفتوحاً و أما ما عرض عليك الآن فسوف تجد أفضل منه بعد عشرين سنة.

والتقيت صدفة بمولانا القاضي محمد علي أبو بكر والذي كان يعمل في القضاء الشرعي في أبو ظبي ردحا من الزمن وعاد إلى السودان فسألني عن الحال والاحوال وسردت له كل الموالي فقال لي : يادكتور الناس في هذه الدنيا تبحث بعد رضاء الله عن المال أو الجاه وأنت في أبو ظبي تملك أضعاف ما عرضوا عليك من الإثني فهاجر في سبيل الله فهو حسبك ونعم الوكيل.

رجعت إلى أبو ظبي حيث وجدت أن الجامعة قد بعثت رسالة إلى معالي وزير الصحة تعتذر عن قبول الطلب لأن الجامعة تعاني من استنزاف العقول المهاجرة إلى دول الخليج وطلبني سعادة الوكيل وأطلعني على الرسالة وقد عقدت لساني الدهشة عندما رأيت ما قرأته و قارنته بما سمعته يقال وقبل أن أفيق من الدهشة وصلتني برقية من الجامعة تقول إذا لم أتمكن من الحضور لإستلام عملي في خلال شهر من تاريخه فسوف تضطر الجامعة آسفة أن تلغي العرض المقدم لي! عرضت الأمر على الأخوة الكبار ونصحوني بمقابلة الوكيل أولاً ثم معالي الوزير.

عندها قرر الوزير إعطائي تذكرة سفر لنلحق قبل فوات الأوان وحتى لا تكون الوزارة طرفاً في ضرر يلحق بي وسافرت إلى الخرطوم وأول من التقيت به كان الدكتور محمود أبكر رئيس

القسم بالوكالة وعلمت انه كان على علم بالبرقية ولكنه أسرني بأنه قد حصل على عقد عمل من دولة الكويت وأن الجامعة لم تمنحه إجازة دراسية للاستفادة من هذا العقد وسوف يغادر صبيحة الغد وأخبرني أنه لا يريد لأحد أن يقف في طريقه وفهمت ما يريد مني وبعد سفره ذهبت إلى عميد الكلية البروفيسور عبد الرحمن محمد موسى وقلت له لقد جئت لاستلام العمل فسألني إن كنت جاداً فقلت له نعم فقال لي اذهب الى القسم استلم من الدكتور محمود أبكر و اشار الى المبنى فقلت له إن الدكتور محمود قد سافر الى الكويت فسألني كيف عرفت فأجبتته بأنني قابلته الامس قال لماذا لم تخبرني قلت له : إنه لم يطلب مني ذلك!!

قال لي في غضب شديد : الآن هل تريد أن تستلم ؟ قلت له : أريدك فقط أن تكون شاهد عصر على أنني جاهدت في سبيل الحصول على موطن قدم في السودان للعودة والعمل فيه منذ (غزوة) كوستي الكبرى والآن تعرضون عليّ وظيفه أتقاضى عشرات أمثالها مالاً وجاهاً (والاقي في هواها ما الاقي) ؟؟ ألا هل بلغت اللهم فاشهد فودعني بحرارة شديدة وقال لي: نلتك في أبو ظبي.

(حاشية) البروفيسور عبد الرحمن محمد موسى الزميل الاكبر في الدراسة في الجامعة والسكن الداخلي لطلاب كلية الطب ورئيس تحرير مجلة (الحكيم) بالكلية انذاك وكنت عضو هيئة التحرير ووالد الدكتور محمد عبد الرحمن الصديق التوأم لابني الدكتور نادر الزين منذ الدراسة في جامعة الخرطوم الى مرحلة التخصص في بريطانيا وحتى كتابة هذه السطور والحمد لله واسأله لهما دوام التوفيق.

عدت إلى أبو ظبي بروح القناعة وراحة الضمير من الشعور بالذنب والأسى على الهجرة من الوطن والارتقاء في أحضان الغربية وكنت كالذي حصل على صك براءة ذمة من دين قديم وجرح أليم لازمه منذ أن هاجر قسراً من أرض الوطن بعد أن اختار الطب النفسي طريقاً له في المستقبل فعاهدت نفسي في عودتي أن أتفوق عليها وقد عرفت مقدارها وأن أضعف جهودي حتى أجنبي ثمارها وأن تكون عودتي هذه آخر سطر في سجل شهادتي على العصر.

في هذه المرحلة وفي إطار التوعية بالمشاكل الاجتماعية شاركت في عدة لجان محلية وتم إنتدائي للتدريس في كلية الشرطه بأبو ظبي لمادة علم النفس الجنائي وعلم الإجرام وقضايا جنوح الأحداث ومشكلات الإدمان وعلاقتها بالامراض النفسية، وقد أسست هذه العلاقة لقيام

علاقات مهنية ساعدتني فيما بعد على المستوى الوظيفي عندما أوكلت إلي مهمة رئاسة القسم والتعاون مع الجهات الأمنية والقضائية في خدمات الطب النفسي الشرعي وعلاج الاعتماد على المواد المخدرة، وقد ضمنت هذه المحاضرات في كتابي (مدخل إلى الطب النفسي) ص ١٩٩ الطبعة الأولى ١٩٨٦ دار الثقافة بيروت لبنان، ومن المؤسف أن صدر الكتاب في إخراج جيد ولكنه مليء بالأخطاء المطبعية حيث صادفت طباعته الحرب الأهلية اللبنانية وقد دمرت ساحة رياض الصلح ودار الثقافة فتمت البقية في قبرص ومازلت أتمنى أن أتمكن من تنقيحه وإعادة طباعته.

■ قسم الأمراض النفسية والعصبية في المستشفى المركزي - أبوظبي

انتقل الأخ الزميل الدكتور عمر الرفاعي من قسم الامراض النفسية والعصبية في المستشفى المركزي للعمل في المملكة العربية السعودية وبقى الزميل الراحل الدكتور عماد فريد استشاري ورئيس القسم وحيداً في القسم، وكانت ضرورة العمل تقتضي وجود استشاري آخر يشراكة المسئولية الاكلينيكية في تسيير الوحدة الثانية في القسم فتم نقلي رسمياً للقسم في عام ١٩٨٤ واستمر انتدابي للجامعة للتدريس خارج الهيئة وإشراف على الوحدة الداخلية للاطفال بالقسم إلى جانب عملي في الاشراف على الاقسام الداخلية الاخرى، وقد أوكلت الى الدكتور محمد رشوان اخصائي الامراض النفسية في القسم الاشراف على العيادة الخارجية للاطفال في الصحة المدرسية، فقد كان يتمتع بعلاقات طيبة مع الجميع وقادراً على استمرارية التعاون بين كل الجهات المعنية بقضايا الطفل وقد كان يدير العيادة مرتين في الاسبوع.

في عام ١٩٨٦ تقاعد الدكتور عماد فريد وأوكلت إلي مهمة رئاسة قسم الامراض النفسيه والعصبية بالمستشفى المركزي فتوقفت عن التدريس في الجامعة وخلفني الدكتور الزبير بشير طه منتدباً من جامعة الخرطوم وتفرغت للعمل في القسم. وبدأت أعتد في تسيير شؤون الاقسام الداخلية بالأخ والزميل في الدراسة والساعد الايمن في العمل الدكتور الامين أحمد إسماعيل والذي كان يغطيني في العيادة الخارجية والمروور على الاقسام الداخلية والمناوبات بعد ساعات الدوام.

في نفس العام تم عقد اجتماع (اللجنة المركزية للصحة النفسية) في رئاسة الوزارة في دبي برئاسة الدكتور أحمد الهاشمي مدير منطقة دبي الطبية لمناقشة بداية ظاهرة انتشار وباء الهيروين وسط بعض قطاعات الشباب في كل المنطقة الخليجية والعربية وقد كلفت هذه اللجنة بدراسة حجم الظاهرة ووضع تصور للحلول وقد استفدنا كثيراً من تجربتنا السابقة في دراسة

مشكلة استنشاق الغراء والبتروول وكان المجتمع قد بلغ درجة من الوعي الصحي والحس الوطني في التفاعل مع هذه القضايا بحيث أصبح مستنفراً للتصدي لكل الظواهر السلوكية الخطيرة التي تهدد تماسك المجتمع.

وقد أصدرت اللجنة عدة توصيات رفعتها الى سعادة الوكيل رئيس اللجنة، وقد اهتم معالي وزير الصحة شخصياً بهذه التوصيات ورفعها إلى مجلس الوزراء الموقر والذي أصدر قراراً بتشكيل اللجنة الوطنية العليا لمكافحة أضرار المخدرات والمسكرات برئاسة وكيل وزارة الداخلية اللواء خلفان خميس وسعادة وكلاء الوزارات المعنية بوضع الاستراتيجية الوطنية للمكافحة واقتراح الحلول المناسبة وقد أعطيت اللجنة صلاحيات واسعة على أن ترفع توصياتها للجهات العليا في أسرع فرصة ممكنة وكانت هذه بداية العمل المقنن بين الوزارات للتصدي لمشكلة المخدرات في المستقبل.

وكان لكل وزارة جهازها الفني التابع لسعادة الوكيل، وكانت اللجنة المركزية للصحة النفسية في وزارة الصحة تمثل ذلك الجهاز وتناقش المشاكل المطروحة وتتخذ التوصيات المناسبة وترفعها اليه، وقد كانت هذه اللجنة من أنجح الآليات في اتخاذ القرارات العلمية المدروسة في شتى المجالات ذات الصلة بتطوير خدمات الصحة النفسية وسوف يأتي ذكرها لاحقاً. صدر القانون الاتحادي رقم ٦ لسنة ١٩٨٦ في شأن (المواد الضارة بالعقل وما في حكمها) كما صدر قبل ذلك القرار الوزاري رقم ٤ لسنة ١٩٨٤ في شأن الرقابة الدوائية والمهن الصيدلانية وسوف يأتي ذكره لاحقاً.

وصدر القرار الوزاري بإنشاء وحدات مؤقتة لعلاج مرضى الإدمان في قسم الطب النفسي بأبوظبي ومستشفى الأمل في دبي تحت إشراف لجنة خاصة ووضع لوائح داخلية للعلاج في هذه الوحدات وسوف يأتي ذكرها.

كنت أتولى تصريف شؤون القسم وحدي منذ انتقال الدكتور عمر الرفاعي الى السعودية ثم تقاعد الدكتور عماد الدين فريد، فوصل الى الإمارات الزميل الصديق الدكتور يحيى عون الله يونس منتدباً الى العين حيث يعمل الزميل الأكبر الدكتور أبوالقاسم سعد وقد بذلت المستحيل للاحتفاظ به في أبوظبي لضخامة القسم وكبر المسؤوليه وقدراته العلمية ومكانته الخاصة عندي ولكن الشاغر الوظيفي كان من كادر العين لذلك بقي حتى إنهاء الاجراءات والتحق بالعين.

بدأت حملة التوعية بأضرار المخدرات وشاركت فيها كل الجهات الرسمية والمنظمات الطوعية والجهات غير الحكومية على قتلها كما شاركت الفعاليات المؤثرة كالاتحاد النسائي وجمعية المرأة الطيبانية والهلال الأحمر، وقد كان لوزارة الداخلية دور بارز ومشهود في التغطية الاعلامية في الصحافة والاذاعة والتلفزيون وطباعة وتوزيع الملصقات التي تشرح أخطار المخدرات وتحض على كراهيتها.

وفي الجانب العملي بدأت وزارة الداخلية في إدارة المكافحه وتحت إشراف الدكتور حاكم عبدالرحمن مدير المختبر الجنائي أنذاك بإعداد دورات تدريبية للضباط العاملين في هذا الحقل، وقد كنا نشارك معه في تقديم المحاضرات حتى ازداد عدد المشاركين في الدورات وزادت فترات انعقادها فبدأ الاستعانة بصفوة من الضباط السودانيين المتخصصين في هذا المجال وأذكر منهم على سبيل المثال اللواء الراحل والاديب المبدع الاستاذ إبراهيم عبدالكريم واللواء الراحل عثمان أبوعفان وأخيراً انضم إلى واسطة العقد صديق الطرفين الزميل الاكبر الدكتور حسبو سليمان كبير اخصائي الطب النفسي بوزارة الصحة بالخرطوم، وقد بدأت زيارته تتكرر على المعهد الجنائي للمشاركة في المحاضرات وقد بدأ التكيف مع مجتمعنا الصغير بحضور حفلات الترفيه التي يقيمها لنا أسطورة الطرب الاخ الفنان عثمان حسين تارة في منزلي وتارات في الفنادق المختلفة في أبوظبي.

وأرجو هنا أن أستميح القارئ عذراً في أن أسند رأسي على راحتيه وهو يتصفح هذا الكتاب وأبته بعض أشجاني حتى لأموت بالحسرة قبل أن أكتب (قصتي مع عثمان حسين) والقارئ يراه يطل برأسه في كل السطور إنه جزء من رحلتي وبعض من ذكرياتي في كل شيء. ومنذ أن كنت صبيا يتلصص في الدخول إلى نادي السكة الحديد في شتى محطاتها وقد كانت تمسك بأرزاق الناس وتتحكم في حياة العباد من الخطوط الحديدية إلى الخطوط الجوية والبحرية والفندقة والمرطبات وتدير السودان من مفتاح مدينة عطبرة بوابة الدخول إلى كل بيت سوداني فإذا أضرب العمال عن العمل في عطبرة أضرب السودان عن الأكل والشرب وتوقف دولاب الانتاج وسقطت الحكومة.

في هذا المناخ النفسي كان نادي العمال رمز كل شيء في السياسة والرياضة والفن والموسيقى وكنا ممنوعين من الدخول إليه، فكنت أختبئ تحت طاولة المسرح التي تحتل ركناً قصياً من النادي ويتربع على خشبة هذا المسرح جهاز الراديو العملاق كصندوق العجائب وله

مؤشر في حجم مسطرة صغيرة تقرأ أرقامها من كل الواجهات وتغذية بطارية شاحنة سيارة ويطرب صوته كل الحي ورغم ذلك كنت أجد متعة خاصة في الاستمتاع تحت خشبة المسرح بأغاني عثمان أمثال (كيف لا أعشق جمالك) و(اللقاء الاول).

وعندما كبرت وجئت إلى العاصمة كان أول مافكرت فيه لقاء عثمان حسين في (حي السجانة) وحضور بروفاته في أغنياته الحولية ودخلت معه وبه الوسط الفني وتعلقت به حتى غنى لي أغنية (أوعديني) في الأسكتش الغنائي الذي صورته وحدة الانتاج السينمائي في فيلم (لاوحبك) للشاعر المتفرد حسين بازرعه وهذا الاسكتش وأمثاله هو السبق الفني والتقني (للفيديو كليب) الذي يتحكم في فن الغناء اليوم وأرجو أن تشاهدوه.

وهكذا استمرت رحلتي مع عثمان فغنى في حفل زواجي وزواج أبنائي نادر وناظم ولم يتخلف عن مناسبة لي ولا أستمتع بها إن لم يعطرها بوجوده ويضمخها بشذى ألحانه العذبة ومعدرة للاطالة حتى نلتقي بكم في قصتي معه بإذن الله تعالى.

وأعود والعود أحمد إلى الذكر العطر وقد بدأ الدكتور حسبو يحدثني عن ضيقه في الخرطوم ورغبة أسرته في الاغتراب رغم سعة رزقه ورصيد علاقاته، وقد كنت ومازلت أعتقد أن وضعه كان مثالياً بكل المعايير وكلنا يتمنى ذلك الوضع المريح ولايحسده عليه ولم يخطر في شطحات الخيال الجانح لأي زميل ان يفكر الدكتور حسبو في الاغتراب.

وفي أحد اجتماعات اللجنة المركزية للصحة النفسية برئاسة الدكتور سعود القاسمي وكيل الوزارة سألني : إن كنت أعرف الدكتور حسبو والذي ذكر أنه أستاذي ويريد أن يعمل في القطاع الخاص وتحديداً في مستشفى (النور) وقد أطلعني على أوراقه فلم أشعره بالزلزلة التي أجتاحتني من الرأس إلى القدم وحاولت أن أتحدث عن الذرائع الحقيقية والمفتعلة وجمعت كل شجاعتي في طرف لساني وقلت في لهجة واثقة : لأعرفه فقط وليس أستاذي فقط ولكنه مكسب للدولة إذا كان جاداً في موقفه وهو الرصيد المتبقي لنا في السودان فابتسم وقال لي : إذن لن تعود فقلت : له الله أعلم.

لم أفتح الدكتور حسبو في الموضوع إلا في المرة الأخيرة وهو ينوي الانتقال وجاءت معه عقيله السيدة ليلي زكي ودعوناهم إلى العشاء معنا بعد أمسية حافلة بالتسوق في متاجر أبو ظبي العامرة وبدأ يحدثني عن شكوى زوجته من ضيق الظروف الحياتيه بهم رغم كل مايملكون وبدأت

زوجته تقنع زوجتي عن بقايا العمر الضائع وكل الوقائع التي تشير إلى ضرورة الانتقال إلى أبوظبي وان كان هذا يصدق على كل المغتربين كقاعدة عامة فالحالة الشاذة الأولى والوحيدة كانت في تقديري هي هجرة الدكتور حسبو وقد حدث واستقر به المقام في مستشفى النور وحضرت أسرته كاملة وظل يعمل بيننا ويعيش معنا ملء السمع والبصر لفترة طويلة لم أشعر بأنه كان سعيداً فيها وكنت أقول له يا حسبو : كان الدكتور التجاني الماحي دائماً يقول: (من غير الطبيعي أن تكون طبيعي في ظروف غير طبيعية) ويرد عليّ قائلاً: (إن المضطر يركب الصعب وهو عالم بركوبه).

ومن غرائب الصدف أن زار أبوظبي في نفس الفترة الزميل الأكبر الدكتور طه بعشر وعقيلته الدكتورة الفضلى سيدة بشار وزيرة الشؤون الاجتماعية آنذاك وقد كانت زميلة دراسة في كلية الطب وقد دعوناهم إلى حفل عشاء وكان الدكتور حسبو موجوداً وقضينا ليلة جميلة حافلة بالذكريات عامرة بالمفاجآت وودعنا الضيفان وعاد الأول إلى السودان وبقي الثاني معنا، وقد بدأت تنمو بيني والدكتور حسبو مودة شديدة وكثيراً ما نلتقي مع الدكتور حاكم أو الدكتور مأمون عبدالغني اخصائي العيون أو في الزيارات المتعددة لصديق الجميع الفنان عثمان حسين في إحدى حفلاته الاسرية.

وفي ذات يوم كان ينتقل فيه الدكتور حسبو الى شقة في بناية مستشفى النور ذهبت معه إلى سوق الميناء حيث يباع السجاد الايراني والتحف الجميلة وافترقنا في العاشرة مساء وفي الصباح أتصل بي أحد الاصدقاء لينقل لي الخبر الفاجع كالجرح القاطع بوفاة الدكتور حسبو سليمان اثر نوبة قلبية في الساعات الأولى من الصباح.

لقد حزنت كثيراً على هذا الفقد الجلل والذي يكتسب شحنة خاصة من الانفعالات الحزينة في الغربة وذرفت كل هذه الدموع في قصيدة (الشمعة المنطفئة) في ديوان (مرآيا المهشمة) ص ١٢٥.

عودة إلى المختبر الجنائي وإنجازات الدكتور حاكم في الدورات التدريبية للمكافحه في الإدارة العامة للشرطة بأبوظبي.

وقد وصل الاهتمام بالمشكلة أروقة المجلس الوطني الاتحادي والذي خصص جلسات للاستماع إلى الوزراء في كل الوزارات المعنية عن حجم المشكلة ووسائل العلاج الحالية والخطط

المستقبلية، وقد شاركت في هذه الجلسات مع معالي الوزير وسعادة الوكيل بصفة مستشار للصحة النفسية للوزارة.

■ قسم الطب النفسي - مستشفى الجزيرة المركزي

بعد صدور القوانين واللوائح الخاصة بإنشاء وحدات علاج الإدمان بدا واضحا ان القسم القديم لم يعد كافيا لاستيعاب المتطلبات الخاصة بهذه الوحدة الى جانب وحدة الاطفال وحاجة الاقسام الداخلية للتوسع ولا يرضي الطموحات التي تتطلع اليها الدولة في تقديم خدمات نفسية تليق بالنهضة العمرانية والاقتصادية والصحية والتي انتظمت كل مرافق الدولة وكان الاهتمام المتنامي بمكافحة آفة المخدرات أهم المداخل إلى تطوير القسم الحالي وأقصر الدروب إلى صناع القرار للموافقة على انشاء قسم جديد للأمراض النفسية في أي بلد نامٍ لاتمثل المشكلات النفسية اولوية في قائمة اهتماماته خاصة اذا كانت هذه الاولويات في مرحلة التنفيذ الاولى وفي بداية الطريق.

عندما طلب مني سعادة الوكيل وضع تصور للقسم الجديد كان في ذهني من الوهلة الاولى ألا يكون هذا القسم خارج أسوار المستشفى المركزي القديم والقائم في وسط المدينة والذي كان يجري التخطيط له في مستشفى الطوارئ وكانت قناعاتي الراسخة أن عدم وضوح هذه الرؤية في أذهان صناع القرار ووجود قناعة تامة لايتطرق إليها الشك ولاتقبل المساومة سوف تؤدي حتما الى البديل التقليدي في النظرة الموروثة عن المصحات النفسية والتي تملأ الاعلام العربي وتسترزق من أحزان الغلابة شكلاً ومضمونا، وقد كانت للوزارة تجربة مماثلة في (مستشفى الامل) للطب النفسي في (دبي) والذي قام على طراز حديث ومواصفات علمية ولكن الجهات الاخرى كالعادة كانت على قناعة تامة بأن المكان الطبيعي لمستشفى الطب النفسي أن يكون خارج المدينة وقد كان وما زالت الوزارة تعاني من تبعات ذلك القرار.

عندما جئت أحمل المخطط إلى سعادة الوكيل بادرني سائلاً: ألا تعتقد أن هذا القسم أكبر مما يجب وقد يدفع الجهات الاخرى إلى الخروج به من داخل أسوار المدينة الطبية فقلت له: في غياب أي خدمات أخرى للطب النفسي في أبوظبي ومع التوسع السكاني قد لا يكون هذا كافياً بعد عشر سنوات في إمارة أبوظبي ثم إنه لا يوجد مستشفى تعليمي في الوزارة أو جامعي في العين يقدم كافة الاحتياجات المطلوبة لتطوير خدمات الصحة النفسية كما ورد في (الخطة الوطنية للصحة النفسية) والمعتمدة من منظمة الصحة العالمية وبناء على توصيات الخبراء المتعاقبين في زيارة الدولة والتي سوف نتحدث عنها فيما بعد.

وافق سعادة الوكيل على المخطط وطلب مني إعداد تقرير فني يتضمن توصيات الخبراء وضرورة الوحدات المختلفة حتى يسهل مهمة الاقتناع لأطراف أخرى لها وجهات نظر مغايرة وينبغي أن تؤخذ في الحسبان فأخذت المخطط المبدئي ووضعتة في شنطة سيارتي الخلفية حتى يكون في متناول اليد عند الحديث مع أي مسئول أو حتى مجرد مستفسر مشفق أو مستنكر مفرض ولم أترك مسئولاً في وزارة له علاقة باتخاذ القرار إلا وصلت إليه بصفة شخصية وأطلعتة على تفاصيل المشروع وقد كانت حملة علاقات عامة استفدت فيها من الرصيد الهائل من العلاقات الشخصية والذي كونته من خلال عملي في اللجان المختلفة في الوزارات المعنية والجامعة والشرطه والجمعيات التطوعية والهيئات شبه الحكومية والشخصيات المرموقة في المجتمع حتى تكون لنا رأي عام متبنى ومدافع عن فكرة وجود قسم الطب النفسي داخل المستشفى ووسط المدينة وألا ينظر إليه كالمصحات القديمة في بلد يستقطب أحدث التجارب ولا ينبغي أن يتخلف في أي مجال.

لقد كانت هذه الحملة الإعلامية مفيدة في خلق رأي عام متعاطف ولكنها لم تكن كافية لحمل المسؤولين على تبني الفكرة تماماً في غياب حيثيات يستند عليها القرار خاصة وإن من بين البدائل المطروحة إنشاء (المصححة) في منطقة (المفرق) قرب المستشفى العام الجديد والذي تم بناؤه كمستشفى تعليمي وكتوسعة للخدمات الصحية المتزايدة في الدولة، وقد كانت هذه الفكرة من أكبر الهواجس التي كانت تقض مضجعي خاصة وإنني أعلم أن الجهات المتبنية لها ذات نفوذ في اتخاذ القرارات المتعلقة بعلاج مرضى الإدمان وأهم من ذلك أن الضوء الأخضر الداعم للمشروع قادم من الجهات العليا المهتمة والمشفقة والمتعجلة لإيجاد الحلول السريعة من أجل علاج مرضى الإدمان.

كان لابد في هذا المنعطف في مسيرة النقاش أن يتوفر الغطاء العلمي الذي يرجح كفة على أخرى ويثبت حقيقة دون غيرها بعيداً عن خطأ الانطباع وتقلبات المزاج وما يكن لي بديل غير الاتصال المباشر بالبروفيسور جون كوبر الصديق الحميم والمعلم القديم والمستشار العظيم الثاقب النظرة الواسع الأفق المتمكن في قدراته والمستوثق في كلماته مقل في حديثه معتد برأيه في غير صلف ولا عناد أقول هذا والرجل يستحق أكثر من ذلك وقد أصبح الآن اسمه على كل لسان وهذا ما يحدث الآن بين العاملين في المستشفى والذين لم يعاصروه ومنهم سمعوا عنه الكثير وقرأوا تقاريره الوثائقية في السجل المركزي وسوف يأتي ذكر كل هذا التراث لاحقاً.

جمعت كل الوثائق والتقارير والخرائط والرسومات الى سعادة الوكيل واخذتها لجنة المشاريع في وزارة الصحة إلى دائرة الاشغال العامة في أبو ظبي للدراسة مع بقية مشاريع المستشفى المركزي مثل مستشفى الطوارئ ودار العجزة والمسنين (مركز التأهيل الطبي) الآن وكانت فترة الانتظار هذه أشبه بحالات الولادة المتعسرة كلما طال الزمن تصاعد المخاض بالألم وقد كانت هذه فترة خصبة بالاستقطاب لخروج المولود للنور.

من الشواهد المهمة والتي خففت من حدة هذا القلق ومن نعم الله على هذه البلاد والتي وصلت بها هذه المرحلة الاسطورية من التقدم وهذه النهضة القياسية في النمو وال عمران أنه عندما يصدر الأمر السامي ببناء مشروع ويوافق المجلس التنفيذي في إمارة أبو ظبي عليه يكون امراً لا رجعة فيه ولكن كما يبدو منطقياً أن العلة كثيراً ما تكون في التفاصيل مثل الموقع والحجم والتكلفة وفترة التنفيذ وهذه التفاصيل قد تصبح معوقات في مرحلة التنفيذ للجهة المنتفعة من المشروع وهذا ما يحدث في بعض الاحيان.

إن دائرة الاشغال العامة في أبو ظبي الجهة المنوط بها تنفيذ كل المشاريع لها رأي فني مهم في كل هذه التفاصيل خاصة و انها راعية المشروع والمشرفة على تنفيذ كل مشاريع وزارة الصحة في الامارة.

لقد بذلت وزارة الصحة في شخص سعادة الوكيل الدكتور عبد الرحيم جعفر ومدير المستشفى المركزي والجزيرة والسيد حسن أحمد العلكيم جهوداً مضنية تحسب في ميزان حسناتهم في إدارة هذا الحوار بين الوزارة ودائرة الاشغال من جهة والمجلس التنفيذي المقرر صاحب القرار من جهة أخرى فقد وافق المجلس التنفيذي على تكلفة المشروع بتكلفة مقدارها سبعة وثلاثون مليون درهم على أن يتم البناء كقسم للطب النفسي في مستشفى الجزيرة والمستشفى المركزي داخل مدينة أبو ظبي الطبية.

لقد كان ذلك اليوم حدثاً تاريخياً في حياتي ونقله نوعية في (رحلتي مع الطب النفسي) فتحت لي آفاقاً جديدة للأمل وكوة مضيئة للرؤية المستقبلية في مسيرتي العملية وعمقت ارتباطي بالبلد الذي استقبلني بالاحضان فقابلته بالعرفان (وهل جزاء الاحسان إلا الإحسان ؟).

وبدأ البناء.....وارتفعت الأضواء على المبنى القديم ليس لإنارته ولكن لازالته وكان علينا أن نتحرك الى موقع جديد لاخلأ الموقع وما زال البعض يعتقد ان الفرصة ما تزال سانحة لتغيير

هذا الواقع على الارض بخروجنا من المستشفى المركزي والذي كان في طريقه إلى الزوال حتى اذا اكتمل المبنى الجديد بعد سنتين يكون لكل مقام مقال وقد يفرز واقع التغييرات في المستقبل معطيات جديدة تقضي بقاءنا خارج المستشفى.

وعلى خلفية هذا التفكير ينبغي التأمل في السوابق فأذكر عندما كنا في اللجنة الاستشارية وهي مجموعة الاطباء الاستشاريين العاملين في مستشفى أبو ظبي المركزي كانت تجمعنا لقاءات شهرية في نادي الاطباء القديم في المستشفى المركزي برئاسة المستر ناير المدير الفني للمستشفى الوحيد في أبو ظبي لمناقشة توزيع مبنى (التوسعة الجديدة للمستشفى المركزي سعة ٣٠٠ سرير) وكان الاستشاريون يتبارون في تقديم خططهم المستقبلية للأسرة الجديدة والتي لم تكن كافية لارضاء طموحات الجميع .

وكان يجري في نفس الوقت بناء مستشفين آخرين قرب جسر المقطع وقرب معسكر سويحان فأخذت القوات المسلحة الأخير ليصبح مستشفى زايد العسكري وأخذت وزارة الصحة الأول ليصبح مستشفى المفرق، ولما كان المركزي القلعة الحصينة في الدفاع عن حياة المدينة في قسم الطوارئ المشهود له بالكفاءة النادرة فلم تطله رياح التغيير وتحول الإمتداد الجديد ليصبح مستشفى الجزيرة الوليد الشرعي من رحم المستشفى المركزي وهكذا عندما بدأنا الخطة الثانية في مستشفى الطوارئ الجديد تضخم البناء ليخرج وليداً جديداً من رحم المستشفى المركزي في مركز خليفة الطبي.

وهذا كان مصدر خوفي ألا يتحول مبنى الطب النفسي إلى شيء آخر وهو خوف مشروع وشاءت قدرة الله الحفاظ على هوية الوليد الجديد في مستشفى الطب النفسي ولذلك كنت أقول دائماً لزملائي (إن المستشفى المركزي ولد ليبقى وخلق ليعيش).

من المهم هنا أن أذكر أن هذه الرؤى لم تكن نابعة من مؤامرة من الآخرين أو عقدة نفسية (بارانويا) في تفكيري ولكنها كانت انعكاساً طبيعياً لرؤية كثير من الناس في الدول النامية وقلة من الناس في الدول المتقدمة وهذا هو التحدي الذي يواجه كل العاملين في حقل الصحة النفسية وسوف نرى كيف واجهنا هذا التحدي بالدورات التدريبية في (فن التعامل مع المرضى ومهارة حل الازمات) في المستقبل لكل فئات العاملين في المستشفى.

اتصلت بالسيد مدير المستشفى والذي كان من القوى الداعمة لبقاء القسم داخل المستشفى وأكدت له مرة أخرى باننا نفضل البقاء في عشرة أسرة داخل المستشفى عن مبنى كامل بالخارج فاقترح عليّ استغلال عيادة الجراحة المقابلة لعيادة الحوادث والتي كان يستعملها الدكتور (نظير كازي) كبير الجراحين وهو من باكستان متمكن في عمله ومؤهل في علمه ومخلص في مهنته ومن تتوفر فيه هذه الصفات عليك أن تثق به وتأمين إليه وتعامل معه وفعلاً رحب على عجل وأخبرني أنهم على استعداد لاختلاء المكان والانتقال إلى عنبر (كبار الشخصيات القديم) والذي لم يعد مستعملاً بعد افتتاح الاقسام الجديدة في مستشفى الجزيرة.

على الفور اجتمعت بزملائي في القسم ونقلت لهم نبأ انتقالنا للمبنى الجديد القديم وقد كانوا أكثر سعادة مني ربما شفقة بي وأنا أهرول يوماً بين الوزارة ودائرة الاشغال أو فرحة منهم في الخروج من تلك العزلة القاتلة في ركن قصي من المستشفى نادراً ما يزورنا الزملاء فيه وكثيراً ما يستكفون الاستدعاء اليه.

وطلبت منهم الاستعداد للانتقال بأسرع فرصة ممكنة وفي غضون بضعة أيام تمت صيانة القسم الجديد وانتقلنا اليه وحتى نبدأ في الاقتراب من وجدان الناس والخروج من الدهليز المظلم للطب النفسي والمرسوم في خريطة التراث الشعبي والمنقول في الافلام والمسلسلات التلفزيونية كتبنا على المدخل (قسم الطب النفسي) بدلاً عن (قسم الامراض النفسية والعصبية) وقد كان هذا (حقاً) و(علمياً)..... (حقاً) لاننا أردنا أن نحارب وصمة المرض النفسي المرتبطة بمسميات وأسماء رسخت فتاعات قديمة وعادات موروثه من الاعلام المشوش والتعليم القاصر ولم تقدم حلولاً ولم تطرح بدائل ولكنه قطعاً لم يكن تغييراً من أجل الإعلان عن النفس أو تضخيم الذات.

و(علمياً) لأن جمعية أطباء الاعصاب الباطنيين المنعقدة في الاردن قد اعلنوا قيام جمعيتهم ودورياتهم العلمية التي تتناول الامراض العصبية وأن خبراء علم النفس في الغرب شقوا عصا الطاعة على الطب النفسي وانفردوا بتكوين الجمعيات الخاصة بهم وحملوا عنا تبعة الصراع مع علماء الدين في مفهوم النفس والروح وعقدة أوديب وشطحات فرويد واتباعه ﴿ولاتزر وازرة وزر اخرى﴾ صدق الله العظيم ولأن بعض الاطباء النفسانيين المارقين على أصول المهنة من امثال (هوفمان) و(ساس) في أميركا و(لانج) في بريطانيا شوها سمعة المهنة بطروحاتهم المحسوبة على الطب النفسي المظلوم ولكن لا يصح إلا الصحيح فقد تركوا لنا (الطب النفسي

طباً) من غير شك وهذا غاية ما نسعى اليه واول ما نؤكد عليه وان كان (الحق) و (العلم) يشهدان اننا كاطباء نفسانيين في دراستنا لهذا التخصص كان اول مقررات دراستنا في الجامعة هي دراسة (علم الاعصاب) مع أطباء علم الاعصاب والباطنية في نفس المستشفى و في نفس القاعة و نفس المعلم ومالم ننجح في هذا العلم لن نتقدم للجزء الثاني من الامتحان في الطب النفسي وكذلك الحال إذا لم ننجح في امتحان (السايكولوجي) علم النفس فلن نتقدم للجزء الثاني من الامتحان في الطب النفسي ولذلك كنت دائماً ما أقول لزملائي إن الطبيب النفسي الناجح يجب أن يكون خبير علم نفس و طبيب أعصاب من الدرجة الاولى قبل أن يتفوق في الطب النفسي والذي يصبح مزيجا من ديناميكية بيولوجية نفسية اجتماعية لايمكن فهم آلياتها الا من خلال توظيف هذين العلمين .

عفواً لهذا الاستطراد فقد كانت ومازالت هذه القضية إحدى النقاط المثيرة للجدل والحساسية بين هذه الفئات ولم تجد القدر المناسب من شفافية الطرح وروح التعاون المأمول في عمل الفريق العلاجي.

حاولنا جهد المستطاع أن نجعل من هذا المبنى الصغير نموذجاً يستوعب طموحاتنا الكبيرة ويعكس قدراتنا الكامنة في الاستغلال الامثل للامكانيات المتاحة ويتحدث عن تصورنا واستشرافنا للمبنى الجديد، وقد احتفظنا بشيء من كل الوحدات السابقة حتى لا تغيب عنا رؤية المستقبل وعملنا بروح الفريق المتكامل حتى اعتقد البعض أن هذا المبنى يكفي احتياجاتنا وبدأنا نفتح على العالم الخارجي وكأنه لأول مرة يكتشف وجودنا وبدأ طلاب كلية الطب والعلوم الصحية من جامعة الإمارات العربية المتحدة يحضرون للتدريب الاكاديمي لدينا في بداية التسعينيات وكذلك استمر طلاب قسم علم النفس فيما اصبح يعرف فيما بعد بكلية العلوم الانسانية والاجتماعية في جامعة الإمارات وطلاب مدرسة التمريض وحتى طلاب المدارس الحكومية في زيارات ميدانية للتعرف على الامراض النفسية وخاصة علاج مرضى المخدرات.

وعلى الرغم من ضيق المبنى فقد كنا نفتح صدورنا للجميع فيما كنا نعتقد أنه استثمار ذو عائد مضمون في المستقبل وسوف نرى صدق هذه النظرة لاحقاً، وقد كانت تربطنا علاقات مهنية متميزة مع جمعية المرأة الطبيانية بالسيدة فتحية النظاري رئيسة فرع البطين والسيدة شمسة هزيم في الاتحاد النسائي العام ورئيسه مكتب شؤون المواطنين في مكتب حرم صاحب السمو رئيس الدولة وذلك في حملات التوعية الصحية وجلساء المسنين ورعاية الفئات ذات الاحتياجات

الخاصة وتقديم العلاج النفسي والمشورة الاسرية لبعض الجانحات من الأسر المفككة وقبل انشاء مراكز الاحداث.

وقد أثمرت هذه العلاقة الطيبة مع المواطنين العاملات في مكتب حرم صاحب السمو رئيس الدولة عن مساعدات شتى للمرضى طويلى الإقامة كما ساهمت في شراء كرافانات لاستعمالها كوحيدات للعلاج بالعمل وأخرى كقاعات ترفيهه عن الاختناقات في العنابر المكتظة بالنزلاء وأخرى كوحدة لتخطيط الدماغ الكهربائي وأخيرة كوحدة للتعليم الطبي المستمر وكأن الفيث بدايته قطر فينهمر في توزيع الوحدات في القسم الجديد.

سعدنا كثيراً عندما التحق معنا الزميل الدكتور محمد حسن القدال استشاري الطب النفسي عائداً من بريطانيا ليكمل حبات العقد الفريد الذي طوق عنق الطب النفسي في الإمارات وكان هذا بعد جهاد مقدر منه وصبر مشهود لنا في الانتظار فانضم الى خلية النحل التي لاتعرف الكلل وتوج جهودنا بإخلاصه وتفانيه منقطع النظير وإنا أراء الله به أن يعوضني سنوات المعاناة في تغطية المناوبات والاجازات وتحمل أعباء العمل في رحلاتي المتعددة والتدريس للطلاب مع بقية الزملاء واستقر بنا الحال على هذا المنوال رداً من الزمن حتى ضرب المنطقة ذلك الزلزال المدمر والذي أحدث شروخاً مازالت غائرة في التربة الخليجية وانقطع الحلم الجميل وعاش الناس في كابوس مخيف.

وبعد أن أفقنا من غيبوبة الزلزال تغيرت الاحوال وتضاعفت فاتورة كل شيء ومن بين ما تأثر تكلفه المشروع وقد قفزت الميزانية من سبعة وثلاثين مليون درهم إلى ثمانية وثمانين مليون درهم قابلة للزيادة إلى مائة وعشرة ملايين درهم إذا ما أُعيد طرح المناقصة مرة أخرى وقد كانت تبعات الحرب الاقتصادية تلقي بظلالها على كل المنطقة.

لقد أسقط في يدي عندما تبين أن مشروعات حيوية أخرى سوف تتضرر قطعاً من آثار الزلزال فاذا لم يكن الطب النفسي من أولويات التخطيط أصلاً فان المستجندات على الساحة تجعل منه ترفاً فكرياً لا يتصدر الاهتمامات الكثيرة التي طرأت في كل المواقع الحياتية.

في أجمع هادئ مع سعادة الوكيل استأذنته القيام بمبادرة شخصية لأضمن لها النجاح ولكنني واثق انها لن تلحق الضرر بالمشروع وبعد أن استمع اليها قال لي: (خير إن شاء الله)

وكانت تربطني صلات طيبة بطاقم المسؤولين على كل المستويات في دائرة الاشغال العامة خاصة مع مدير الاشغال الاخ الصديق كبير المهندسين السيد أحمد عمر خلف الله ومهندس المشروع السيد منير الجنيبي واستشاري المشروع (براين تيلور) ومهندس التصميم والذي كان يتصل بي للتفاكر من موقعه في (أيلسبري) في (اكسفوردشير) في بريطانيا.

بعد اتصالات على كل المستويات استدعاني ذات صباح المهندس منير الجنيبي طالباً مني الحضور إلى دائرة الاشغال ولشدة دهشتي طلب مني الذهاب معه إلى المجلس التنفيذي الموقر لعرض موضوع المشروع بتكلفته الجديدة بعد مراجعة كل الاطراف ويبدو أنه قد أخذ ضوءاً أخضر للتحرك في هذا الاتجاه.

ذهبنا الاثنين معاً إلى ردهات المجلس نحمل الخرائط والرسومات وجلسنا على طاولة في البهو الكبير أمام قاعة الاجتماعات ودخل صاحب السمو الشيخ خليفة بن زايد بن سلطان آل نهيان ولي العهد نائب القائد الاعلى للقوات المسلحة رئيس المجلس التنفيذي وبرفقته سمو الشيخ سلطان بن زايد آل نهيان نائب رئيس مجلس الوزراء رئيس دائرة الاشغال في طريقهما إلى داخل القاعة ووقفنا لهما نرد التحية وقد لاحظنا الموقف.

بدأ الاجتماع ونحن في الانتظار في البهو الخارجي حتى نهاية الاجتماع بعد الثانية والنصف وفي طريقهما إلى الخارج التفت الينا صاحب السمو الشيخ خليفة قائلاً: (خير يادكتور؟!) فقلت: (خير والحمد لله... وتأهبت للحديث فبادرني سمو الشيخ سلطان قائلاً: (المختصر المفيد يا دكتور) وهنا استطرقت... إن هذا المشروع للصحة النفسية وهو الأول من نوعه والاكبر في الدولة والاحدث في المنطقة والمعتمد من قبل خبراء هيئة الصحة العالمية وقد كانت تكلفته قبل الحرب سبعة وثلاثين مليون درهم وقد ارتفعت بعد الحرب الى ثمانية وثمانين مليون درهم قابلة للزيادة إلى مائة وعشرة ملايين درهم لو أعيد طرح المناقصة اليوم فقال : (وهل يفي هذا المشروع بالاحتياجات المستقبلية لعشرة أعوام أم تعودوا للمطالبة بمبنى آخر؟ قلت له : (إن شاء الله)..فالتفت الى مدير مكتبه معالي علي بن حمد الظاهري وطلب منه ابلاغ المجلس بالموافقة و كان هذا النقاش القصير قد تم في بضع دقائق وهما واقفان فحيانا وواصلنا المسير الى الخارج فوقفنا ننظر بعضنا الى بعض ونكاد لانصدق أن ما كان حلماً لا يصدق قد صار في غمضة عين و انتباهتها واقعا وتحقق فشكرنا الله على نعمته.

كانت هذه اللحظة نقطة تحول جديدة في حياتي ونقلة نوعية جديدة في تفكيري ونظرتي لكثير من الامور التي كانت تؤرقني داخل وخارج السودان واعطتني فرصة جديدة لاطبق على ارض الواقع كل ما درسته في قاعات المحاضرات وبطون الكتب وعلمتني انه لا يصح إلا الصحيح.

وكانت هذه الموافقة تعني بالنسبة للوزارة تحقيق احد اكبر اهداف الاستراتيجية الوطنية للصحة النفسية والمطلوبة من هيئة الصحة العالمية ومن اكبر الانجازات الصحية على مستوى دول المنطقة.

و كانت بالنسبة لدائرة الاشغال العامة تعني الخروج من عنق الزجاجة للمشروع الذي بدأ وقطع شوطا بعيداً في البناء وتوقف وكان لا بد له أن يستمر. وقد بدأت ماكينات العمل في الدوران صباح مساء وكأنها تسابق الزمن ولاتتظر للوراء وفتحنا قنوات اتصال مباشر مع مهندس المشروع المقيم في المستشفى في أحد الكرافانات وذلك للتشاور المستمر وتذليل العقبات في بعض التفاصيل وقد كنت التقى كثيراً برجل الاعمال الكبير والبارز في عالم المقاولات العملاقه السيد (المريخي) شخصياً ومع ابنائه الذين كانوا يزورون موقع المشروع داخل المستشفى.

ويشاء الله أن يصبح المشروع حقيقة ملء السمع والبصر وبدأت دائرة الاشغال تحس براحة البال من القيل والقال في تنفيذ المشروع واصبحت اكثر حرصاً من اي جهة أخرى في تسليم هذا المشروع في مواعده المحدد.

■ مستشفى الطب النفسي الجديد - أبو ظبي

استمر عملنا في القسم المؤقت بنفس الزخم والحيوية وقلق الانتظار لولادة القسم الجديد وفي هذا الوقت بدأنا التفكير في وضع خطة الكادر الطبي الجديد وقد بدأت الوزارة تعطي أذناً صاغيةً لصيحات الاستغاثة التي كنا نطلقها في الماضي دون مجيب واصبح هذا المبنى فتحاً جديداً لعلاقات مثمرة وبناءة بين الطرفين واصبحت الجهات ذات العلاقة اكثر تجاوبا مع متطلبات المرحلة في التعاون من أجل الاستفادة المشتركة في المستقبل وبادرت وزارة الداخلية في تعيين أطباء نفسانيين للخدمات الطبية وذلك للتسيق مع قسم الطب النفسي في التعيينات الجديدة والفحص الدوري ومعاينة الحالات المحولة من السجون والحالات التي تستدعي عقد لجان طبية لتحديد صلاحيتها للعمل.

تمت المعاينة والتعيين للدكتور فؤاد علي مرسي في الخدمات الطبية للشرطة في أبو ظبي كما زارنا الدكتور أحمد سراج الاستاذ السابق بكلية الطب في جامعة الخرطوم وكان يرغب في العمل في دولة الإمارات ولكن صديقنا البروفيسور شيخ ادريس عبدالرحيم والذي سبقه للعمل في السعودية كان قد دبر له عقد عمل هنالك قبل أن تبدأ إجراءاته معنا فنصحنا ألا نصعب عليه الخيارات.

كان واضحاً ان المرحلة المقبلة للمشروع لن تكون أقل أهمية من مرحلة البناء لأنها تتعلق بتوفير الكوادر الفنية والمعدات الطبية والأثاثات فتم استدعاء البروفيسور جون كوبر كخبير من هيئة الصحة العالمية ليشترك في ورشة عمل كبرى في قاعة الاجتماعات في مستشفى الجزيرة ضمت كل الجهات التي سبق ذكرها في سياق الفريق المتكامل من الوزارات ذات العلاقة بالصحة النفسية والمشاركة في اللجنة الوطنية لمكافحة المخدرات والمسكرات وقد انبثقت من هذه الورشة عدة لجان مهمتها شرح دور المنشأة الجديدة للناس والمشاركة في نشاطاتها المستقبلية كل في اطار الدور المنوط به والمتصل فنيا باعضاء الفريق العلاجي بالداخل والمنفصل ادارياً بالوزارة ذات العلاقة.

كما تم الاتفاق في الداخل على (مرحلة التشغيل) للقسم حسب الاولويات الموجودة والامكانيات المتوفرة من الكوادر البشرية والمعدات الطبية وكانت هذه اللجان الفنية المتخصصة تعمل في إدارة المشتريات التابعة للجنة المشاريع بالوزارة وكان دوري فيها استشارياً وليس فنياً مباشراً.

في هذه الاثناء حدث تغيير وزارى وجاء طاقم إدارى جديد في وزارة الصحة وقد بدا لهم أن مبنى بهذه الضخامة في المساحة الجغرافية وهذه الكثرة في الوحدات التخصصية ينبغي ان يكون مستشفى قائماً بذاته وليس قسماً من مستشفى الجزيرة والمستشفى المركزي كما هو موضح في الخرائط الهندسية والرسومات واللوحات الارشادية المثبتة امام المبنى وبدا واضحاً ان ثمة اختلافاً في المسمى لايفسد للود قضية ولكنه يهزم الهدف الذى من أجله قام المبنى لكي يكون قسماً للطب النفسي في المستشفى العام.

وإذا كانت إشكالية الاسم لاتعني شيئاً مؤثراً في نظرة الاداري فانها تعنى الكثير بالنسبة للطبيب النفسي الذي تحكم توجهاته نظريات حديثة وأفكار متطورة في مجال تخصصه تحدد

مساره من هيئات دولية كمنظمة الصحة العالمية والتي شاركت بالرأي والمشورة على مدى بضع سنين وفي وقت يشهد فيه العالم هدم المستشفيات القديمة في كل انحاء العالم وبناء وحدات تخصصيه متكاملة داخل المستشفيات ودمجها في الطب العام وخدمات الرعاية الصحية الاولية.

إن ضخامة المبنى لم تكن ترفاً معمارياً ولكنه تلبية لمتطلبات حديثة في توفير مساحات واسعة بالداخل وصالات للترفيه عن المرضى وتوفير معدات هذا الترفيه من ألعاب رياضية من مختلف الاشكال ولكل الانشطة وانماط التسلية والعلاج بالعمل والمطلوب في المستقبل أن يكون المركز التخصصي العلاجي التعليمي المتميز والاول في الدولة الذي تصب فيه التحويلات من الاقسام الاخرى المختلفة والهيئات الراغبة في تدريب كوادرها فيه.

ولعل من المهم أن نذكر في هذا السياق ان الرسومات لم تشمل الوحدات التشخيصية المساعدة كالمختبرات والاشعة والصيدلية والتي كان ومايزال يقوم بها المستشفى المركزي بكفاءة منقطعة النظير وذلك حتى لاتقطع صلات الوصل بيننا ونبدأ مرحلة عزلة جديدة من صنع أيدينا.

بعد نهاية حرب الخليج المؤسفة وبعد أن شارف البناء مرحلة التشغيل عاد وزير الصحة الاسبق معالي حمد عبدالرحمن المدفع إلى وزارة الصحة للمرة الثالثة في تاريخه العامر بالانجازات ليعود لنا الامل في استمرارية الزخم الذي كانت تنعم به ولم يكن هذا حلماً شخصياً ولكنه كان واقعا عمليا شهدت به الحقبات المتعاقبة في توليه الوزارات الخدمية كالصحة والتعليم وأول ما قام به في ولايته الثالثة أن قام بتكريم الاطباء الذين قدموا خدمات متميزة للدولة في مجالات عملهم وطلب من المجلس التنفيذي الموقر لإمارة أبوظبي تخصيص خمس عشرة وظيفة حلقة خاصة /درجة خاصة تقديرأ لخدماتهم وتشجيعا لعطائهم وقد شرفني مشكوراً وخصني مع المكرمين وكان هذا في نظري تشريفاً في مظهره وتكليفا في مخبره فأخذته على معناه الحقيقي في اثبات الجدارة والاستحقاق لهذا الشرف العظيم.

في بداية مرحلة التشغيل اعطتني الوزارة مكتبا مجاوراً لمكتب الاخ الكريم سعادة المستشارالقانوني الاستاذ عبدالمجيد سليم والذي كان مقرراً للجنة المركزية للصحة النفسية مع الصلاحيات اللازمة في إجراء المقابلات والمعاینات مع الجهات ذات الصلة وتعيين الكوادر الطبية اللازمة لافتتاح القسم من اطباء واطباء نفسيين واجتماعيين وفنيين علاج بالعمل وممرضين بالتعاون مع ادارة التمريض وكل الكوادر المساندة.

وبعد الانتهاء من هذه المهمة حزمت حقائبى من الوزارة وعدت إلى القسم والذي كان يتولى الدكتور القدال القسط الاكبر من مسئولية العمل فيه وبعد نهاية هذه المهمة ببضعة شهور بدأ وصول الكوادر المعينة لاستلام العمل وكان من طلائعها الاخوة زملاء الدكتور يوسف التجاني والدكتور مجذوب محمد على قادمين من السودان.

في ١٧/١٠/١٩٩٥ أصدر معالي وزير الصحة قراراً وزارياً رقم (٢٦٦٢) لسنة ١٩٩٥ يقضى بتعييني مديراً لمستشفى الطب النفسي الجديد في أبوظبي وقد وضع أن هذا المسمى يعطى استقلالاً مالياً وميزانية منفصلة ما كان يمكن أن تتوفر من خلال ميزانية المستشفى المركزي القديم والذي كان في هذا الاثناء قد تحول ليصبح (مركز خليفه الطبي) بعد أن توسع مبنى الطوارئ إلى أضعاف الخطة الاولى وأصبح مؤسسة طبية مستقلة تديرها مؤسسة خاصة وان المستشفى المركزي سوف يظل مركز طوارئ وكنا زلنا وسنظل نستقبل الحالات الطارئة من خلال طبيبنا المناوب في مركز الحوادث تأكيداً لتوصيات هيئة الصحة العالمية بدمج الطب النفسي في الطب العام ولا تزال الفحوصات المخبرية والتشخيصية تجرى في مستشفى الجزيرة والمركزي.

ومن المؤسف أن كان يتأهب لمغادرتنا إلى لندن للعمل هنالك الاخ الدكتور محمد حسن القدال والذي اصبح أحد الاعمدة الرئيسية في الهيكل التنظيمي والوظيفي للقسم فاقمنا له حفل وداع مؤثر ودعته فيه بقصيدة (بطاقة وداع) نشرت في ديوان (إطلالة من شرفة أبوظبي) ص ١٣٦. وفي نوفمبر عام ١٩٩٥ بدأ الانتقال الفعلي والعمل في قسم الطب النفسي الجديد وانتقلنا من قسم الطب النفسي القديم بالكادر الطبي الموجود اضافة إلى القوى البشرية التي تم تعيينها في شتى التخصصات والتي باشرت العمل في المبنى الجديد وبدأت تتوافد تباعاً حتى صار حجمها ثلاثة اضعاف الكوادر البشرية التي كانت تعمل في القسم المؤقت على أقل تقدير من تخصصات الاطباء والهيئة التمريرية والاداريين وإلى خمسة أضعاف من الاخصائيين الاجتماعيين والنفسانيين وفنيي العلاج بالعمل وعندما اصبح لزاماً وجود صيدلية خاصة بالقسم تم تعيين ستة صيادلة وفنيي صيدلة موزعين بين صيدليتي النساء والرجال إلى جانب فنيي مختبر في وحدة علاج الاعتماد على العقاقير للكشف الدوري على المواد المخدرة.

وقد قد كان هاجسي الاول وقبل الانتقال ان يبداً العمل بداية صحيحة من خلال الاحساس بضرورة العمل الجماعي لان الطب النفسي اكثر من غيره من التخصصات الاخرى يحتاج الى

روح الألفة والمودة بين أعضاء الفريق العلاجي حتى تنتقل هذه الروح إلى اعماق المريض النفسي الذي يحتاج إليها بصورة تفوق حاجته للطعام والشراب خاصة في المراحل الأولى للمرض أو ظروف الانتقال إلى العناية الطبية الداخلية وحاجته للألم البديلة والأب البديل والأخ البديل والأخت البديلة ولا يمكن أن يحصل على هذه البدائل مجتمعة إلا في جو أسري يتمتع أفرادها بالراحة النفسية والهدوء العاطفي والقدرة على العطاء على أعلى المستويات وفي أوقات واقسى الازمات وفاقد الشيء لا يعطيه.

لذلك كان من المهم ومنذ البداية أن يتعلم الجميع هذه الحقيقة ويعملوا على تنزيلها في أرض واقع العمل اليومي من أجل كل هذا دخلنا المبنى الجديد نحمل مفتاحاً سحرياً من مفردتين اولاهما (أسرة) مستشفى الطب النفسي وثانيهما مستشفى الطب النفسي (الجديد) وفي تقديري حقا كان لهذه المفردات وقع خاص في نفسية العاملين داخل وخارج المستشفى لان مفهوما انسانيا يجب ان يدخل في لب العلاقات بين الجنسيات المختلفة واللغات المتعددة والثقافات المتباينة وما لم تدخل عنصراً جديداً في رابطة العمل من الشعور بالانتماء للمؤسسة والاحتماء بمظلة الجماعة من خلال علاقات حميمة أقرب إلى الصلات الاسرية تستمد وقودها من طبيعة التعاطف الذي تقتضيه المهنة في تعاليمها وأبجدياتها والتي قد تكون غائبة عن الجدد من المنتسبين وأحياناً من بعض القدامى في لحظات الضيق أو الاحباط وهذه طبيعة النفس البشرية.

وكلمة (الجديد) لم تكن إعلاناً عن المستشفى ولكنها تأكيد على الشكل وتسويق للمضمون لقد كان (جديداً) حقاً لأنه قام على انقاض القسم القديم في نفس المكان في الركن القصي من سور المستشفى المركزي في السبعينيات وهذه حقيقة لا يعرفها إلا قلة تعد على أصابع اليد الواحدة من العاملين و(جديد) لانه انتقل مرة ثانية من القسم المؤقت الى القسم (الجديد) وهذه حقيقة لا يعرفها كل المنتسبين الجدد الى المنشأة و(جديد) لانه شيد حديثاً وبمواصفات خاصة للأهداف التي انتهى للقيام بها والعمل من أجلها ومن حقهم علينا أن يعرفوا ماهو (الجديد) المطلوب وإن كانوا يعلمون وعلى الجميع أن يتفوقوا على انفسهم من أجل الحفاظ على هذه الصفة المميزة وقد فعلوا وحققوا جميعهم ذلك الانجاز الرائع والذي سوف نستعرضه بشيء من التفصيل في الفصول القادمة.

في عام ٢٠٠٠ تشاء الصدفة الجميلة أن يزورنا في أبو ظبي قادماً من السودان الاخ البروفيسور علي شمو بدعوة من المجمع الثقافي بدولة الإمارات لتقديم محاضرة عن (الفضائيات

في عصر العولمة) وقد جمعته في منزلي بالصفوة من الرعيل الاول من المغتربين في أبو ظبي والذين كانوا وما زالوا رفاق درب في المسيرة منذ أن كان أحدهم في بداية السبعينيات وقد قلت له انني أعد لك مفاجأة سارة.

وعندما حان وقت الغذاء وجد كل المحاربين القدامى في انتظاره وقد علق صديق الجميع الاخ المهندس أحمد عمر خلف الله وكان أحدهم قائلاً قولته المشهورة : يا علي هؤلاء الأخوة ما زالوا على العهد باقين لقد جاء كل واحد ولسان حاله يقول : (نقعد سنتين ونبني بيتين واحد نعيش فيه والثاني نعيش عليه ونعمل قرشين للمستقبل والحمد لله قعدوا السنتين وعملوا القرشين ونوا البيتين والمستقبل جاء وفات وهم قاعدين (ضحك الجميع وما زالوا يتندرون ويرددون هذه المقولة وما اشبه الليلة بالبارحة ولله في خلقه شؤون).

وارجوا أن ابادر واقول إنني أكتب تفاصيل هذه الرحلة وفي ذهني القارئ والمؤرخ السوداني فإذا توسعت في بعض الجوانب على ضآلتها واختصرت بعض الجوانب على أهميتها في السياق العام فإنني التمس العذر كل العذر في ضرورة هذا الالتزام والالتزام كما أنني في حديثي عن هذا العدد الهائل من الذين اسهموا في كتابة هذا التاريخ من مختلف الدول والجنسيات والاعراق والطوائف كانوا على قلب رجل واحد في كل اوقات عطائهم مما يجعل من الصعب ان لم يكن من المستحيل ذكرهم بالاسماء جميعا رغم مما يتمتعون به من مكانة متساوية في الحجم والمساحة في قلبي ووجداني وعزائي انهم يدركون هذه الحقيقة ولكن الانصاف والامانة تقتضي ذكر القلة التي تمثل الكثرة حيث تولت مسؤوليات في الوحدات المختلفة وكانت تعبر عن وجدان الآخرين في مجال العمل.

ويشهد الجميع ان ميلاد هذه المنشأة الطبية قد أحدث نقلة نوعية ليست فقط في نظرة المسؤولين حيث صعد في سلم الاولويات في التعامل والتخاطب والتطوير بل في نظرة الزملاء في التخصصات الاخرى والذين غيروا كثيرا من النظرة المتدنية إلى اسهامات الطب النفسي في مجالات الطب البشري وأخيراً وهذا قمة الانجاز ان تغيرت نظرة شرائح المجتمع الاخرى للطب النفسي إلى حد كبير من بعض المفاهيم الخاطئة عن الطب النفسي وانكسر الى حد ما الحاجز النفسي والذي كان يقف حجر عثرة في التواصل مع هذه الشرائح وسوف نستعرض هذا التغيير في الفصول اللاحقة والتي تحكي بقية (رحلتي مع الطب النفسي) وتسرد السيرة الذاتية للمستشفى المنفصل والقسم المتصل بالاقسام الطبية الاخرى وتسجل للتاريخ قصة الطب النفسي في

الامارات وانجازات كل العاملين في مجال الصحة النفسية في دولة المعجزات وأولها معجزة تحول الصحراء إلى واحة خضراء وثانيها.. ارتفاع البيوت الشعبية الى ناطحات اسطورية وثالثها في الزمن القياسي والذي لايزيد عن عمر شابة في ريعان شبابها ولدت الدولة عملاقة في ثلاثة عقود فلاعجب ان تتحقق معجزة أخرى تتمثل في صعود الطب النفسي الى مكانة لم ينعم بها في اكثر الدول تقدما وحضارة كما شهد بذلك كل الزوار من تلك الدول القريبة والبعيدة وسجلنا شهاداتهم بالصوت والصورة عملا بشرف التوثيق ومن أجل عيون الحقيقة نسبنا الفضل الى أهله والذين لولاهم ما كانت المعجزات وسوف نستعرض ذلك في (شخصيات عالميه).